تأثير التيارات السياسية في لغة القرن العاشر الهجري على اللغة

د. حسنة عبد الحكيم عبد الله الزهار(*)

يأتي القرن العاشر الهجري ختاما للألفية الهجرية الأولي، ويأتي مواكبا للقرن السادس عشر الميلادي، القرن الذي أفل في العقد الثالث منه نجم دولة المماليك الثانية (المماليك البرجية)، وصعد نجم الدولة العثمانية علي يد سليم الأول الذي ضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلي مملكته سنة ١٥١٧ م - ٩٢٣ هـ، وحمل آخر خليفة للمسلمين من القاهرة إلي القسطنطينية (الآستانة بعد ذلك)، وبذلك أصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك أصحاب السلطة الدينية، كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة).

وبذلك يكون الربع الأول من القرن العاشر الهجري معاصرا لنهايات دولة المماليك البرجية الذين كانوا من أصول شركسية، أما ثلاثة أرباع القرن الأخري فقد شهدت الحكم العثماني الذي امتد لمدة أربعة قرون، ونظرا لما تميزت به هذه الحقبة من تيارات سياسية عنيفة ومؤثرة فسوف يتناول هذا البحث أحداث هذه الحقبة ببعض التفصيل لاستنطاق الأثر الذي انعكس علي اللغة آنذاك، والذي تمثل في كتابات شهود هذا العصر المختلفة، ولذا فسوف ينقسم هذا البحث إلي: مقدمة تاريخية وفصلين وخاتمة.

١- المقدمة التاريخية تضم :
- بداية القرن العاشر الهجري (٩٠١- ٩٢٣هـ) التي شهدت نهايات الدولة المملوكية وطبيعة هذه المرحلة
- من (سنة ٩٢٣هـ - ١٠٠٠) أي من هزيمة المماليك وانتصار الدولة العثمانية ، والتغيرات التي واكبت هذه الأحداث حتي نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر
- النتائج الطبيعية لأحداث العصر

٢- الفصل الأول: لغة الربع الأول من القرن العاشر متمثلة في نموذج للمؤرخ ابن إياس (ت ٩٣٠) من كتابة (بدائع الزهور في وقائع الدهور) .

٣- الفصل الثاني: لغة نهاية القرن العاشر وأثرها في القرن الحادي عشر متمثلة في لغة يوسف المغربي (ت ١٠١٩) في نموذج من كتابه (دفع الإصر عن كلام أهل مصر).

٤- خاتمة تضم أهم نتائج البحث .

(*) أستاذ مساعد علم اللغة / قسم اللغة العربية وآدابها - كلية البنات - جامعة عين شمس.

أولا - بداية القرن العاشر (٩٠١-٩٢٣هـ) الفترة التي شهدت آخر حكام دولة المماليك

يقول دكتور يوسف زيدان :

(لما بدأ القرن العاشر الهجري وآذنت شمس الألفية الهجرية الأولي بالمغيب، لم يكن أهلونا آنذاك يفكرون في إقامة الاحتفالات، وإنما اهتاجت ظنون البعض من أجدادنا، إذ اعتقدوا أن هذه الأمة سوف تندثر مع مجيء الألف (الهجرية الثانية)، وأن يوم القيامة قد دنا موعده!، وانتشرت وقتها هذه الأوهام وعششت في الأذهان فما كان من الإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١) إلا أن تصدي لها، ناقضا عن أمته هذا الظن الطنان برسالة طريفة، ظريفة العنوان (الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف)[1]

هكذا كان استقبال العالم العربي والإسلامي لختام الألفية الهجرية الأولي، ولكن إذا عرف السبب فقد يبطل العجب، أو يتأكد، وقد يساعد بسط الأحداث التالية في التفسير والتعليل.

ونبدأ الحديث بتقديم صورة تاريخية لدولة المماليك بحيث نستعين بها لتكون الإطار المحيط بظروف هذا البحث ، ونبدأ من حيث بدأ الأستاذ الدكتور سعيد عاشور بتصوير سبب تفرد الدولتين الأيوبية والمملوكية عمن سبقها من الدول الإسلامية، يقول: (إنه من الأهمية بمكان أن نعلل للترابط بين دولتي الأيوبيين والمماليك، وهو الترابط الذي جعل منهما – فيما يتعلق بنظم الحكم - وحدة واحدة أكسبت الدولتين طابعا متكاملا له شخصيته التي تميزه عن الدول السابقة واللاحقة، ولإيضاح ذلك نقول إن مصر في العصرين الأيوبي والمماليكي[2]

خضعت لحكومات غير عربية الأصول معظم حكامها من عنصر الترك أو قريبي الصلة بالعنصر التركي، وهؤلاء استأثروا بحكم مصر وأهل مصر، وأدخلوا من النظم فيما يتعلق بالحكم لمسات غير عربية، وفي معظم الأحوال اعتمدوا في قوتهم، وتثبيت سلطانهم علي غير العنصر العربي، وبذلك خالفوا ما كان سائدا في الدول الإسلامية التي قامت قبلهم وبعدهم علي أرض مصر. ثم إن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر بعد انتهاء عصر بني أيوب استقوا الكثير من نظمهم مما كان سائدا في زمن الدولة الأيوبية مما جعل الترابط يبدو قويا بين الدولتين الأيوبية والمماليكية، والمقصود بمصطلح مماليك أنهم في أصولهم الأولي كانوا مملوكين لسادتهم بني أيوب لذلك نسبوا إلي هذه الملكية، وفي نفس الوقت ورثوا عن سادتهم الأيوبيين الكثير مما كان سائدا عندهم ، فإذا تذكرنا أن بني أيوب أنفسهم لا يرجعون إلي أصول عربية،

---

(١) د. يوسف زيدان / المخطوطات الألفية كنوز مخفية / ط١/ ص٥و٦ / كتاب الهلال العدد ٦٤٦/ دار الهلال القاهرة ٢٠٠٤

(٢) دأب د. سعيد عبد الفتاح عاشور علي النسب للجمع مماليك ، وقد أقر مجمع اللغة مؤخرا النسب إلي الجمع بعد أن شاع ذلك في لغة الصحافة وتداولته الناس

إنما يرتبطون من ناحية الأصل والجنس بأصول من الترك والأكراد والتركمان– ومن شابههم – أدركنا أن الأصول لابد وأنها تركت بصماتها في الأوضاع السائدة فيما أسميناه العصر الأيوبي المماليكي، وقد أدرك هذه الحقيقة القلقشندي صاحب (صبح الأعشي) فقال (ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية (أي دولة سلاطين المماليك) وإلي زماننا علي رأس الثمانمائة، مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية التي هي أصل الدولة التركية)(١)

لكن تبعية دولة المماليك لدولة بني أيوب التي يشير إليها الدكتور عاشور كانت من أهم مشكلات دولة المماليك وهنا تشير الأستاذة الدكتورة رشيدة عطا إلي المأزق الذي وجد المماليك أنفسهم واقعين فيه بعد تولي مقاليد الحكم، فمع بداية دولة المماليك طرحت مشكلة الشرعية من فئات ومستويات عديدة علي المستوي الديني والسياسي والشعبي، فعلي المستوي الشعبي ذكر ابن إياس أنه لم يكن في البداية تقبل لتولي المماليك عرش السلطنة فقد رأوا فيهم حكاما لم ينشئوا علي الإسلام، ولم يكن هناك رضا عام علي سلطة أيبك، لم يرض أهل مصر عنه.

١– (فكان إذا ركب يسمعه العوام ما يكره، ويقولون له نحن ما نريد إلا سلطانا رئيسا ولد علي فطرة الإسلام(٢)، ونفس الرأي رددته قبائل العربان في الصعيد والبحيرة الذين رأوا في المماليك عبيدا، فاعتبروا الأيوبيين خوارج، والمماليك عبيدا للخوارج لا توجب لهم طاعة، وقالوا نحن أصحاب البلاد.

وعلي المستوي الديني فإن الشيخ عز الدين بن عبد السلام طعن في شرعية تولي بعض المماليك الحكم لأن حكم الرق قائم عليهم ولا يصح لهم بيع ولا شراء ولا نكاح فتعطلت مصالحهم بذلك، ومن الواضح أن المماليك أنفسهم كانوا يشعرون في البداية بنوع من عدم الثقة في التقبل العام لحكمهم، ورغم هذا فقد استمرت دولتهم من ١٢٥٠– ١٥١٧م، وهنا تتساءل د. رشيدة: كيف استطاع المماليك حكم مصر لفترة تقرب من ثلاثة قرون؟ وما هي العوامل التي لجئوا إليها لإكساب حكمهم صفة الشرعية؟(٣)

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور/ مقال (أضواء علي أنظمة الحكم في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي) منشور في (حكومة مصر عبر العصور: أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار من ٢٢– ٢٣ أبريل ٢٠٠٠/ إعداد د.عبد العظيم رمضان)/ ص ١٤٧و١٤٨/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣

(٢) د. رشيدة عطا/ مقال شرعية الحكم في دولة المماليك / منشور في(حكومة مصر عبر العصور .... مرجع سابق/ ص١٥٣و١٥٤.

(٣) المرجع السابق/ ص١٥٥

وهنا تبرز د. رشيدة ما توصلت إليه من استقراء تاريخ الدولة المملوكية فتوصلت إلي أن المماليك قد استندوا إلي ثلاثة عوامل أو ثلاث دعائم في تدعيم شرعية حكمهم، وتتمثل هذه العوامل في:-

- العامل الأول: هو العامل الديني الذي اعتبروه ركيزة رئيسية لاعتراف الشعب بحكمهم فقاموا بإحياء الخلافة العباسية في عهد السلطان الظاهر بيبارس، ثم الحصول علي تفويض بالسلطنة من هذا الخليفة ليكتسب الشرعية، وكان من ذلك أيضا سعيهم الدائم إلي الرجوع إلي فتاوي العلماء ورجال الدين في قراراتهم فيما يختص بعزل وتولية السلاطين، وفرض الضرائب والرسوم، وإصدار الأحكام في ثوب ديني، وتمثل هذا الاتجاه أيضا في ما أقاموه من منشآت دينية وتعليمية إسلامية فكان منها المدارس والمساجد والبيمارستانات التي جعلتهم في نظر العامة حريصين علي شرائع الإسلام.
- العامل الثاني : هو عامل الجهاد، فالمماليك قد ورثوا دولة خاض مؤسسها صلاح الدين الأيوبي حروبا عديدة ضد الصليبيين جعلته بطلا للجهاد الإسلامي، فكان عليهم المضيّ في حركة الجهاد لإثبات شرعيتهم كمدافعين عن العالم الإسلامي سواء ضد الصليبيين أو ضد المغول، ولقد بدءوا عهدهم بالانتصار علي المغول في معركة (عين جالوت) التي أوقفت الزحف المغولي وحقق سلاطين دولة المماليك الأولي (البحرية) انتصارات عديدة علي الصليبيين، فسقطت قلاعهم في أنطاكية وطرابلس ثم أخيرا عكا علي يد الأشرف خليل، أما دولة المماليك الثانية(البرجيّة) فبرغم الاضطراب الذي سادها علي المستوي السياسي والاقتصادي، فقد أرسلوا حملات إلي قبرص ورودس، فخضعت قبرص ودفعت الجزية للمماليك .
- العامل الثالث: عامل القوة، وتتمثل القوة هنا في القوة الحربية والمادية، فالنظام المملوكي كان قائما علي نظام الإقطاع الحربي، وحجم الإقطاع يرتبط بالدرجة والمكانة الحربية، وهذا النظام قائم علي ثنائية الأستاذ والخشداش، فالأستاذ الأمير الذي يقوم بشراء أعداد من المماليك، ويقوم بتربيتهم ليكونوا عونا له واتباعا .

والخشداش معرب اللفظ الفارسي(خوخاتاش) أي الزميل في الخدمة وهم الزملاء الذين نشئوا عند سيد واحد فوحدت بينهم الزمالة القديمة، وكان السلطان يجمع من الطباق كل مجموعة من المماليك من نفس الجنس، ولكن رابطة الأستاذية والخشداوشية لم تمنعهم من التطلع للعرش مع عدم الإيمان بمبدأ الوراثة لاشتراكهم في نفس ظروف النشأة والتربية لا يميزهم إلا القوة المتمثلة في أعداد مماليكهم[1]

(١)المرجع السابق / ص١٥٦

ويبدو أن حرص المماليك علي تثبيت شرعية حكمهم أمام الشعب كان مظهريا وليس جوهريا، وقد أثبتت الأيام صحة حدس الشعب، ورفضه من البداية فكرة تولي المماليك الحكم، إذ سرعان ما ظهرت الأمور علي حقيقتها:

– فالعامل الديني المتمثل في الحرص علي وجود أحد الخلفاء العباسيين في مصر إلي جوار سلطان المماليك ليضفي علي وجوده في الحكم صفة الشرعية أصبح أداة في يد السلاطين له حدوده المرسومة له فإن تجاوزها كان مصيره العقاب كأي تابع من أتباع الدولة، فسجن من سجن وقتل من قتل، ناهيك عن الإهانات التي تعرض لها بعضهم(١)

والفقهاء والقضاة الذين استعان بهم السلاطين لم ينجوا من قبضة المماليك الذين نظروا إليهم كوسيلة من وسائل تثبيت الحكم وإكساب الشرعية، فإذا تجاوزوا رغباتهم فإنهم يتعرضون للعقاب بالنفي أو السجن فيما عدا حالات قليلة استجاب السلاطين لفتوى الفقهاء فيها، وفيما عدا ذلك كان هناك العديد من العلماء الذين يمثلون الجهاز الداعم للسلطة وللفتاوى التي يحتاج إليها السلطان.

وكانت أهم إيجابيات هذا العامل اهتمام المماليك ببناء المؤسسات الدينية من مساجد ومدارس تقربا للشعب ، ولإثبات تدينهم، وتخليدا لهم، والذي يرجع إلي خطط المقريزي يجد قائمة طويلة بالمنشئات المملوكية من مدارس ومساجد وبيمارستانات للفقراء وكتاتيب لتعليم الأيتام، ولم يكن هذا مقصورا علي السلاطين، بل امتد لأمرائهم جميعا ونسائهم.

كما اهتم عدد من السلاطين وأمرائهم بإنشاء المدارس الفقهية علي المذاهب الأربعة، واشتهرت بعض هذه المدارس بدروسها وأساتذتها من فقهاء وعلماء(٢).

ولم يمنع اضطراب أحوال الدولة المملوكية الثانية الاستمرار في إنشاء المؤسسات الدينية، ومسجد قايتباي خير مثال علي ذلك، وكذلك غيره من المنشئات الدينية التي تمت في عصره، هذا عدا تجديده للمنشئات الدينية السابقة علية مثل تجديد عمارة المسجد النبوي الشريف لما احترق ، وتجديد عمارة قبة الإمام الشافعي ...الخ

– أما العامل الثاني وهو عامل الجهاد فهو العامل الوحيد الذي لعب دورا إيجابيا في مصلحة دولة المماليك فقد أوجدت فكرة الجهاد والدفاع عن العالم الإسلامي للمماليك شرعية كحماة ومدافعين .

أما العامل الثالث وهو عامل القوة فقد كان السوس الذي نخر جذور الدولة المملوكية من حيث لا تدري ، لأن طبيعة العلاقة خلال العصر المملوكي الأول والعصر المملوكي الثاني والتي تمثلت في حرص السلطان علي شراء عدد كبير من المماليك ليكونوا عونا له لتدعيم ملكه

(١)المرجع السابق / ص ١٥٧

(٢) المرجع السابق / ص ١٦٢و١٦٣

ضد الأمراء الطامعين في الحكم ، وأيضا لجوئه إلي الاستعانة بجشداشيه (زملائه السابقين لدي سلطان سابق) حينما يتولي الحكم، وهذه الرابطة هي التي دفعت المماليك إلي الثورات المتكررة علـي من يلي الحكم منهم لأنهم يرونه زميلا مساويا لا يتميز عن أيّ منهم، ولكن عامل القوة ووجود أعوان هو الذي أتاح له الوصول إلي العرش، فلم يتورعوا عن قتله إن تمكنوا منه[1]

وهكـذا اسـتمرت هذه السلسلة من الممارسات العنيفة بين المماليك وبعضهم حتي أغرقتهم في بحر الدم ، وآلت بهم إلي حال الضعف وليس القوة حتي أسلمتهم إلي الانهيار أمام قوة الغازي العثماني سليم الأول سنة ١٥١٧م(٩٢٣هـ) .

وفي تـناول ول ديورانت لحقبة حكم المماليك في مصر نجده يبدأ بقوله (بينما كان الإسلام في آسيا يعاني الغزو المتكرر والثورات ، استغل سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧) مصـر التي سادها استقرار نسبي إذ ذاك ، وقضي الموت الأسود علي ازدهار البلاد لفترة من الـزمن ، ولكن في أثناء هذه التقلبات استمر المماليك يوفقون بين الإدارة القادرة والمصالح الفنـية من جهة ، والاختلاسات والفظائع من جهة أخري ، ومهما يكن من أمر فإنه في سنة ١٣٨١ بدأت القصة بداية النهاية بالنسبة لدولة المماليك في زمن السلطان الملك الناصر بن بـرقوق مـن أسـرة المماليك البرجية التي ساد عهدها الترف والدسائس والعنف والانحلال الاجتماعي حيث خفضت الحكومة قيمة النقد علي غير عادة الحكومات ، وفرضت الضرائب الباهظة علي ضروريات المعيشة ، وأساءت استغلال احتكار الدولة للسكر والفلفل ، وفرضت في الإسـكندرية رسوما باهظة علي تجارة أوربا مع الهند ، مما دعا تجار الغرب إلي البحث عن طريق آخر إلي الهند حول إفريقيا، وهنا خسرت مصر علي مدي جيل بعد رحلة فاسكو دجاما (١٤٩٨) كـثيرا مـن نصيبها الذي كان يوما هائلا من التجارة بين الشرق والغرب ، وقد أوقعـت هذه الكارثة الاقتصادية البلاد في حالة من الفقر المدقع إلي درجة أن السلطان سليم الأول لم يلـق إلا مقاومة ضعيفة حين أنهي حكم المماليك سن١٥١٧، وجعل من مصر ولاية عثمانـية[2]، وفي تحليل هذا الموقف يقول برنارد لويس (جاءت الضربة الحقيقية التي وجهها الغرب إلي الشرق من جهة مختلفة تماما ، فعندما وصل فاسكو دجاما إلي كلكوتا قال : أنا ابحث عن المسيحيين والتوابل ، وكان هذا تلخيصا صادقا للدوافع التي أرسلت البرتغاليين إلي آسيا ، كمـا يلخص مع بعض التعديل موقفهم من (الجهاد) الذي كانت رحلات البرتغاليين بمعني من المعـاني ، جوابا متأخرا جدا عليه ، كان الشعور الديني قويا لدي البرتغاليين الذين ذهبوا إلي الشرق ، فكانت الرحلات الاستكشافية تعتبر نضالا دينيا ، أي استمرارا لحملة استعادة البلاد المحتلة والحروب الصليبية ، وكفاحا ضد العدو الإسلامي نفسه ، وعندما وصل البرتغاليون إلي

(١) المرجع السابق / ص ١٦٧

(٢) ول ديـورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد علي أبو درة / ج٥ من المجلد السادس (٢٦) / ص٥١و٥٢/ الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية / القاهرة ١٩٧٢

المياه الشرقية كان خصومهم هم القوي الإسلامية لمصر وتركيا وفارس والهند ، وكانت هيمنة هذه القوي هي التي أطاحوا بها)[1]

ومـع شـدة اضطراب أحوال المماليك وأحوال الناس في تلك الحقبة كما ورد من خـلال وصف الأحداث التي رصدها لنا ابن إيا س في حينها، لم تذكر لنا مصادر هذه الفترة شيئا عن اضطراب أحوال العلم والثقافة واللغة بنفس القدر الذي اضطربت فيه أحوال البلاد السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية ، فمن جهة الطبقة الحاكمة المتمثلة في السلطان وأمراء المماليك وردت الأخبار عن حسن تكوينهم العلمي ، حيث سار تعليم المماليك في سن صغيرة أسـاس تكوينهم ، فكان تعليمهم الفروسية مواكبا لتعليمهم القراءة والكتابة والخط والفقه في خطين متوازيين ، وفي ذلك تقول المصادر : (كان جند المماليك أخلاطا من الأتراك والجركسة والـروم والأكـراد ، وأكثرهم من المماليك المبتاعين ..... ولهم في تدريب ذلك الجند طرق خاصة بهم ، يبدؤون به منذ دخول المملوك في ملك السلطان : إذا قدم تاجر عرض مملوكا علي السلطان يشتريه ويجعله في طبقته ، ويسلمه إلي الطواشي برسم الكتابة، فأول ما يبدأ تعليمه ما يحـتاج إلـيه من القرآن، كانت كل طائفة لها فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط ، والتمرن بآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الشائع إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا مـن الفقـه وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السـهام ولعب الرماح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه ، وإذا ركبوا إلي لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي أو أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل عندئذ إلي الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلي أن يصير من الأمراء، فلا يـبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح ، ومرن علي ركوب الخيل)[2]

ويذكر المرجع السابق أن جند المماليك قد ظلوا علي قومهم وجند يتهم حتي بعد انهيار الدولة المملوكية، مما حدي بالدولة العثمانية التي ورثت ملك المماليك أن تستعين بجند المماليك وأمرائهم في إدارة البلاد التي فتحها الغزو العثماني: (ولما فتح السلطان سليم مصر سنة ٩٢٣ هـ ضعف أمر المماليك ن لكنهم مازالوا محافظين علي جنديتهم يتوارثون تقاليدها أجيالا حتي تولي محمد علي ففتك بالمماليك في القلعة سنة ١٨١١م، فانقرض المماليك وجندهم من ذلك الحين)[3].

---

(١)شاخت وبوزورث / تراث الإسلام / ترجمة د. محمد زهير السمهري وآخرون / ج١ / ص٢٩١و ٢٩٢/ عالم المعرفة / العدد ٨/ ط٢/ الكويت ١٩٨٨

(٢)تاريخ التمدن الإسلامي / جورجي زيدان / ج ١ / ص / دار الهلال / القاهرة ب . ت

(٣) المرجع السابق / ج / ص

التعليم وأحوال البلاد الثقافية زمن المماليك البرجية:

إذا وضعنا تلك المعلومات إلي جوار ما سبق أن ذكرناه من حرص المماليك علي تقوية وضعهم في الإمساك بزمام الحكم عن طريق استمالة قلوب الشعب، وذلك بالحرص علي مظاهر التدين المختلفة من أول إحياء الخلافة العباسية ، إلي الرجوع إلي الفقهاء ورجال الدين في كل صغيرة وكبيرة حتي تكون كل أمورهم مدعمة بحجج شرعية من الكتاب والسنة، إلي الحرص علي التقرب إلي الله ببناء المنشآت الدينية كالمساجد والمدارس والبيمارستانات، اتضحت الرؤيا، وظهرت الأسباب والحجج التي نستند إليها عند الزعم بأن اللغة العربية ظلت قوية، ولها مكانة محترمة لدي الطبقة الحاكمة حتى وإن كانت من أصول غير عربية ، وحتى لو كانت لهم أسبابهم الخاصة في الحرص علي احترام اللغة العربية والحرص علي تعلمها قراءة وكتابة، وقد كان من نتيجة هذا الحرص علي تعليم العربية – لغة القرآن – للمماليك الصغار أن ظهرت طبقة محترمة المكانة من الفقهاء والقضاة ، وقضاة القضاة في المذاهب الإسلامية الأربعة (الشافعية، والحنفية، والمالكية والحنبلية) حتى لقد أثري بعضهم من عمله ، وبلغ مرتبة علية القوم[1].

ويرصد المقريزى عدد المدارس في مصر في عهد سلاطين المماليك بسبعين مدرسة، ويقال نحو ذلك في الأصقاع الأخرى، أما عدد الكتب في مكتبة الأزهر بالقاهرة فقد بلغت (١٠٩٩ كتابا) عند نهاية حكم المماليك ودخول العثمانيين مصر[2]

فإذا انتقلنا إلي طبقات الشعب الكادحة المضغوطة بسبب أعباء الحياة من جهة، وضغوط وإلحاح الحكام المماليك في فرض الضرائب علي مكاسبهم الضئيلة، ورفع أسعار السلع ، بل ونهب ممتلكاتهم الفقيرة في كثير من الأحيان وجدنا تناسبا عكسيا بين نسبة المتعلمين تعليما دينيا، و نسبة الأميين من طبقات الحرفين والفلاحين وبقية الطوائف، ومع ذلك فقد برز من بين أبناء المصريين عدد من نبهاء الفقهاء والأدباء والشعراء بالإضافة إلي عدد آخر من الجنسيات المختلفة، ومن الغريب أن تركز كتب التاريخ العربية والأجنبية علي ازدهار هذا العصر في العمارة والفنون الجميلة وفي المشغولات الدقيقة، ولا تتوقف عند الثقافة والأدب واللغة فنجد مثلا ول ديورانت يؤكد فقط علي انتشار الفنون بداية من زخارف المساجد التي ألهمت زمن المماليك وانتهاء بالفنون الصغيرة فنجده يقول (وتوج قايتباي أعماله في أخريات أيامه بمسجد تذكاري من الجرانيت والرخام ذي زخارف رائعة، ومئذنة عالية ذات شرفات، وقبة مزينة بنقوش هندسية .... وانتشرت الفنون الصغيرة في عهد المماليك، وصنع النقوش علي العاج والعظام والخشب ألفا من المنتجات الجميلة، من صناديق الأقلام إلي المنابر، وهي منتجات يتخيلها الذوق ، ويقوم علي تنفيذها العمل المتواصل والمهارة ، وقد بلغ التطعيم بالذهب والفضة ذروته أيام هذه الأسرات الدموية، كما أخرجت للعالم الزجاج المطلي بالمينا

(١) المرجع السابق / ج / ص

(٢) المرجع السابق / ج٣ / ص ٢٢٦

ومصابيح المساجد والكؤوس والمزهريات المزدانة بالصور أو الزخرفة التشكيلية من المينا الملونة والمرصعة بالذهب أحيانا، وبمثل هذه الطرق وبكثير غيرها لا يحصيها العدّ، خلع الفنانون المسلمون علي الجمال شكلا خالدا،وبذلك عوضوا عن وحشية ملوكهم)[1].

ويذكر فرانشسكو غبريلي (أنه بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر نشأت شرقي البحر الأبيض المتوسط دولة عربية أخيرة، كانت عربية في لغة رعاياها وثقافتهم إن لم تكن عربية في دماء ملوكها، هذه الدولة هي سلطنة المماليك السورية – المصرية ... إنه لا يوجد لدينا المعرفة اللازمة لتكوين حكم يستند إلي معلومات ثابتة حول المنجزات الثقافية للعالم الإسلامي في فترة المماليك والفترة العثمانية، فمما لا شك فيه أن مجالات كالعمارة والتصوير وصناعة الخزف وإنتاج الكتب وصنع

السجاد كانت تقسم بشكل فني مميز له قيمة جمالية رائعة، حيث يلاحظ أن القسم الأخير من القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر يشكلان فترة ثانية أخذ فيها الغرب عن الشرق الإسلامي في مجالات الفنون الزخرفية (وكانت الأولي في القرن الحادي عشر حتي القرن الثالث عشر)، ولم يدرس الأدب العربي لهذه الفترة إلا قليلا، لكن لا يعقل أن لا يوجد في هذا الإنتاج الأدبي الواسع بعض الكتاب من ذوي المكانة الرفيعة، علي غرار منجزات الأدب الفارسي في هذه الفترة التي كانت معروفة أكثر، وثمة في الواقع كثير من الدلائل التي تدعو المرء إلي الشك في الرأي المبسط الذي يصف الفترة الواقعة بين الغزوات المغولية والأزمنة الحديثة، أعني فترة المماليك والعثمانيين في الشرق الأدنى وفترة الصفويين والمغول في الشرق الأكثر بعدا (الأقصى)، بأنها فترة ركود فكري وتفاهة ثقافية – هذا الرأي المبسط قد لا يمكن الدفاع عنه في المستقبل، علي أنه لا بد من القول بأن التراث الفعليّ الذي خلفه الإسلام لأوربا في هذه الفترة الثانية لا يمكن مقارنته بتراث الفترة الأولي، ففي ذلك الوقت المتأخر كانت أوربا عصر النهضة وعصر الإصلاح تكتسب وعيا بذاتها، ويتملكها حب استطلاع عقلي لم يكن له أي نظير في الإسلام التقليدي الذي كان هو نفسه مهددا بالنزعة التوسعية السياسية والاقتصادية للأوربيين)[2]

وتشي عبارة فرانشيسكو بوجود هذا لتراث الأدبي الذي لم يقف عليه المستشرقون عند تناولهم لهذا العصر بالدراسة المتأنية تأثرا بما شاع عن ضعف النتاج الأدبي والعلمي لهذه الحقبة ، وربما كانت المقارنة ظالمة إذا كانت بين غير الأكفاء ، وهذا ما لاحظه فرانشسكوا عند مقارنة أثر التراث الإسلامي في فترته الأولي علي أوربا، وأثر الفترة الثانية منه، وأيا كان رأي المستشرقين في هذه المسألة فالذي يرجع إلي البيلوجرافية التاريخية لمؤلفات تلك الحقبة ومؤلفيها يجد لنا رصدا جيدا لأعلام الثلث الأول من القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر

(١) ول ديورنت / قصة الحضارة / ج٥ من المجلد ٦(٢٦)/ ص٥٣

(٢) شاخت وبوزورث / تراث الإسلام / مرجع سابق / ص١٥٨و١٥٩

الميلادي)، ويستطيع المتبع لهذه الأعمال بحياد علمي أن يفرز الغث من السمين، وسوف يساعدنا طرح نماذج من مؤلفات هذا العصر ، ومعالجة لغتها أن نصنع نوعا من هذا الفرز

ثانيا: بداية العصر العثماني (من ٩٢٣- ١٠٠٠ هـ) (١٥١٧- ١٥٩٣م)

كانت الفترة الأولي من القرن العاشر الهجري مقدمة طبيعية لأحداث بقية القرن وبالتحديد منذ سنة ٩٢٣هـ -١٥١٧م، تلك السنة التي كانت نهاية البداية للمناوشات بين المماليك والعثمانيين التي استنزفت قوة المماليك وأنهكتهم خلال السنوات الأخيرة من حكمهم علي مصر والشام، وهي أيضا التطور الطبيعي للزيادة في نمو وتعاظم قوة العثمانيين في آسيا وأوربا علي يد سلاطينهم العظام: من أمثال بايزيد الأول، وبايزيد الثاني، وسليم الأول، وسليمان القانوني، في مقابل زيادة الخسار وتضاؤل نفوذ المماليك نتيجة تناحرهم علي السلطة، ودمويتهم في صراع الحكم ، في تلك الحقبة أصبح الإسلام والأتراك صنوين من الناحية العملية، وأصبحت كلمة تركي مرادفة لكلمة مسلم ، لقد أصبح الأتراك المسلمون مسيطرون علي أقوي إمبراطورية في أوربا، وبقيت القسطنطينية في حوزتهم بما تحوي من أعاجيب وغرائب ، وأصبحت أبهة الباب العالي تثير إعجاب الأوربيين ، وأصبح لها تأثيرا كبيرا في نفوسهم[1]

ويؤكد فرانشسكو جبريلي هذا بقوله: (ثم اختل التوازن التقريبي بين المسيحية والإسلام علي شواطئ البحر المتوسط في القرن الخامس عشر علي يد العثمانيين الذين انطلقوا من الأناضول ليكتسحوا آخر ما تبقي من بيزنطة، ودمروا المعاقل اللاتينية في إيجة التي كانت قد أقيمت في القرن الثالث عشر، ثم احتلوا اليونان بصورة دائمة، وفي القرن السادس عشر استولت الإمبراطورية العثمانية علي دولة المماليك ، وصعدت صراعها البحري ضد البندقية، وانطلقت لتحقق علي الأقل زعامة علي المغرب ... وفي الواقع كانت الموجة الإسلامية الثانية في ظل الحكم التركي هي التي اجتاحت شواطئ البحر المتوسط)[2].

أما عن موقف التراث الإسلامي في هذه الفترة فيقول عنها جبريلي متسائلا في البداية: (هل هناك "تراث إسلامي" يعود إلي هذه الفترة الثانية؟ ..... لقد اتجهت الكتابات التاريخية الأوربية المتعلقة بالإمبراطورية العثمانية إلي الإجابة بالنفي ، يدفعها إلي ذلك مبدأ القومية (الذي كان هذا التركيب الإسلامي الأخير المتجاوز للقوميات نفيا له)[3]، ثم يقول أيضا: (أما ظهور الإمبراطورية العثمانية فقد تطابق زمنيا مع ولادة أوربا الحديثة وظهور دولة الأمة والفكر الفلسفي والعلمي الحديث، وكان التفوق الذي تميزت به الدولة العثمانية ينحصر في حقل التنظيم العسكري، وكذلك، في بادئ الأمر علي الأقل في التنظيم السياسي)[4]، فهو

(١) قصة الحضارة / مرجع سابق / ص ٥٤: ٦٥ ، و١٠٨:١٠٠

(٢) تراث الإسلام / مرجع سابق / ص٥٧

(٣) المرجع السابق / ص ١٥٨

(٤) نفسه

بهذا يقلل من شان القوة العثمانية التي اقتصرت قوتها في تلك الفترة فقط علي القوة العسكرية ، ولم تعتمد علي قوة الفكر ، وذلك في مقابل ولادة الأمة الأوربية الحديثة المبنية – علي حد قوله – علي الفكر والفلسفة .

التعليم والثقافة زمن الدولة العثمانية :

مع أن هناك من المؤرخين من يذكر أن أول من إنشاء المدارس في الدولة العثمانية كان السلطان أورخان (ت ٧٦١هـ)، وقد اقتدي به سلاطين آل عثمان في إنشاء المدارس، وكانت أشهرها المدارس الثمانية التي أنشأها السلطان سليمان[1]، فإن أغلب المصادر التاريخية في المقابل تؤكد علي أن فترة الحكم العثماني بشكل عام، وعلي مصر بشكل خاص، كان من أشد فترات التاريخ إظلاما وتدهورا فكريا وحضاريا، وفي ذلك يقول د. عبد السلام الشاذلي (فقدت مصر بخضوعها للسيطرة العثمانية، وبنفي الخليفة العباسي المتوكل علي الله بن المستمسك بالله يعقوب إلي استنبول زعامتها الدينية في الشرق الإسلامي، وشعر المصريون بالأسف العميق لخروج أمير المؤمنين من ديارهم العامرة وفي ذلك يقول ابن إياس: فقد حصل للناس علي فقد أمير المؤمنين غاية الأسف ، وقالوا قد انقطعت الخلافة من مصر وصارت باستنبول، وهذه من الحوادث المهولة (بدائع الزهور /ج٣/بولاق ١٢١٣هـ/ص١٢٠)....

كما وقع في أسر الفتح العثماني العديد من طوائف العلماء والقضاة والأعيان والتجار وأرباب الصنائع ، وبذلك فقدت مصر أيضا زعامتها الحضارية والعمرانية في نهاية القرون الوسطي لبلاد الشرق .. وقد اعتبر ابن إياس إخراج طوائف البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين ، ونواب القضاة ، والتجار والأعيان، ومشاهير الناس من أبشع الوقائع المنكرة التي لم يقع لأهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان (بدائع الزهور /ج٣/ص١١٣) ، وقد قدر ابن إياس عدد من خرج من أهل مصر إلي استنبول وقتئذ بألف وثمانمائة إنسان (نفسه/ص٢١٢)، وفقدت مصر وقتئذ نيفا وخمسين صنعة (الجبرتي/عجائب الآثار/المطبعة الشرقية/ مصر ١٣٢٢هـ/ج١/ ص٢١)[2]

ومع كل ما سبق لم يخل الأمر من مزايا، لكن هذه المزايا لم تظهر متزامنة مع تلك الفترة، ولكنها ظهرت فيما بعد بوصفها نتيجة منطقية لما حدث، لقد حملت تلك المرحلة في أحشائها جنين نهضة الفكر العربي الحديث في مصر والمنطقة العربية، وكما يقول بعض المؤرخين إنه رغم ما تتصف به تلك الفترة من انحطاط ولبس وغموض، فإنه يجب علينا أن نستشف من وراء سحب تلك الفترة التاريخية وظلامها، ومضات الفكر الخلاق فيما بعد، وقد لاحظ د. طه حسين في دراسته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية (أنه يكاد يكون مؤكدا أن الترك

---

(١) جورجي زيدان / تاريخ التمدن / ج٣/ ص ٢٢٦

(٢) د . عبد السلام الشاذلي / تطور الفكر العربي (١) / ص ٦/ سلسلة التنوير/ الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة سنة ١٩٩٠

العثمانيين لو لم يقفوا سير الحركة العقلية في مصر مدة طويلة لكان الفكر المصري من تلقاء نفسه ملائما للأذهان الأوربية في الأعصر الحديثة، ولاستطاع أن ينال – بل أن يقدم – قسطه من الرقي العام للحضارة)[1]

ويعقب د. الشاذلي بقوله: (وتؤكد لنا الوقائع التاريخية أن الحركة العقلية في مصر كانت تسير – رغم الصعوبات التي فرضتها عليها الدولة العثمانية – تجاه تقدم تلك الحركة العقلية الفكرية، ونحو الإحاطة بالعلوم الطبيعية والتاريخية التي تراكمت عبر الزمن الطويل من حياة التراث العلمي للشعوب العربية، ولم يكن ذلك بالطبع داخل حدود البرامج الرسمية للمعاهد العلمية وقتئذ، كالأزهر الشريف بمصر، فقد اقتصرت المناهج الرسمية للأزهر علي العلوم السلفية كالعلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه، وكالعلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة، لكن الاتصال الحقيقي بالقيم الثقافية كان نتيجة تجاوز بعض علماء الأزهر لحدود المعرفة التقليدية، حيث تحولت بيوت بعضهم إلي منازل لدرس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية، ولكن يجب علينا أن نلاحظ هنا أن الحياة الروحية في الفترة الأخيرة من القرون الوسطي قد اتجهت بصفة عامة – سواء من الناحية الفكرية أو الأدبية – إلي ناحيتين مختلفتين، فقد كان الاتجاه نحو الإحاطة بالمعارف العلمية يتغلب بصعوبة متناهية علي تراكم هائل من النزعات الدينية والصوفية، ولم يتخلص بعض الذين اهتموا بالعلوم المنطقية والرياضية من أثر المباحث الكلامية والعقائدية بصورة نهائية. كذلك كان الأمر بالنسبة للحياة الأدبية لذلك العصر .. وإذا تجاوزنا الأفق الضيق للأدب الرسمي، فسوف نري أن الآداب الشعبية قد اتجهت هي الأخرى إلي ناحيتين مختلفتين، فهناك الآداب الشعبية التي تعني بالقص الديني كحياة الأنبياء وسير الأولياء، وهناك الآداب الشعبية التي تعني بالحديث عن الأبطال التاريخيين كعنترة، والظاهر بيبرس ...الخ)[2]

أما د. لويس عوض فله رأي آخر، حيث يري أن المصريين الذين كانوا يعيشون في عهد المماليك والأتراك في عزلة مطلقة عن سلطات الدولة من حيث هي كائن سياسي، أي أن الشعب المصري كله بكافة طبقاته كان معزولا سياسيا وذلك في ظل احتكار الأتراك للمناصب السياسية والاقتصادية في أيديهم دون بقية طوائف الشعب المصري، كما عملوا علي الاستئثار بكل مصادر الثروة والإنتاج لملء خزائنهم بالأموال مما أدي إلي تعدد الثورات الشعبية المغرقة للفلاحين والبدو والحرافيش كل في إطاره، الأمر الذي أدي إلي تشتت جهود تلك الثورات وتحولها إلي مجرد انفجارات وقتية، فلم تتجاوز ذلك لتكون تيارا قوميا عاما للرأي العام في البلاد لأن الوعي القومي لم يكن قد تحددت ملامحه آنذاك، لكنه لا يستبعد أن تكون تلك

---

(١) د طه حسين / فلسفة ابن خلدون الاجتماعية / ترجمة محمد عبد الله عنان / ص١٦٥ / مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٥

(٢) د. محمد عبد الله الشاذلي / تطور الفكر العربي (١) / ص ١٠و١١

الانفجارات مقدمات للوعي القومي الذي تبلور وظهر قبيل الحملة الفرنسية علي مصر، ولكن أيا كانت حالة الرأي العام وقتئذ فهو لاشك قد كان في حالة هيولية لا تبلور فيها ولا وضوح ، وهـو بالقطع لم يجد تعبيرا في الأدب لسبب بسيط، وهو أنه لم يكن هناك مظهر من مظاهر الكتابة يستحق أن يسمي أدبا)[1]

وفي مقارنـة الدكتور شوقي ضيف بين حال العلم والأدب في المرحلتين المملوكية والعثمانـية نجده يقول: (كانت مصر في عهد المماليك تعتبر زعيمة العالم الإسلامي، إذ وقفت دون موجة التتار التي اكتسحت شرق هذا العالم حتي الشام، كما وقفت دون موجة الصليبيين وردتهم عن بلاد الإسلام، وقد انتقل إليها الخليفة العباسي، وفي هذا الانتقال ما يرمز إلي أهميتها في تلك العصور، إذ أصبحت موئل الإسلام من طرف، كما أصبحت موئل العلم والأدب من طرف آخر بما فيها من حياة آمنة مرفهة ، ويظهر أن مصر كانت علي جانب عظيم من الرخاء واليسـر في هذا العصر المملوكي، ولذلك كثرت فيها العمارة حتي قالوا إنه بني في أيام الملك الظاهـر مـا لم يبن في أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسـير والـدور والمساجد والحمامات، وكذلك اشتهر عصر الناصر بن قلاوون بكثرة العمائر في مصر والشام ، وفي هذا ما يدل – من بعض الوجوه – علي ثروة مصر في هذا الحين ، ولعـل مـن الغريب أن المماليك – علي الرغم من أنهم كانوا من الرقيق – عنوا بالحركة العلمـية علي نحو ما صنع سادتهم من الأيوبيين، فبنوا المدارس وأغدقوا عليها الأموال، وكان أول مـن استن هذه السنة الظاهر بيبرس، فقد أنشأ المدرسة الظاهرية، وكان لها أربعة إيوانات لـتدريس الفقـه الشافعي والحنفي، وتدريس الحديث وقراءات القرآن، كما كان بها مكتبة تشـتمل علـي أمهات الكتب في سائر العلوم، وقد احتذي بالظاهر المنصور بن قلاوون فبني مدرسة كبيرة سميت المدرسة المنصورية، ثم جاء الناصر بن قلاوون فأنشأ مدرسة عظيمة، ثم جاء المماليـك الـبرجية وعلي رأسهم برقوق الذي أنشأ مدرسة المذاهب الأربعة ودرس التفسير والحديث وقراءات القرآن ، وتبعه الملك المؤيد شيخ فابتني مدرسة كبيرة، وكل ذلك يدل علي مبلغ عناية المماليك بالحركة العلمية ، وتشجيع العلماء ، وقد عرف المؤيد شيخ من بينهم بأنه كان شاعرا وموسيقيا ، ويقول السيوطي (ت ٩١١) نقلا عن ابن حجر إنه (كان معه إجازة تصحيح البخاري من شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، فكانت لا تفارقه سفرا ولا حضرا (السـيوطي / حسن المحاضرة /ج٢/ص١٦٣) . وإذا كان المماليك قد عنوا بالحركة العلمية فـإنهم عنوا كذلك بالحركة الأدبية ، وقد كان لديوان الإنشاء عندهم منزلة كبيرة ، وكان لا يوظـف فـيه إلا من اشتهر بالبلاغة ، وأتي أسرار البيان والفصاحة، وكثيرا ما ارتقي كاتب الإنشاء عندهم إلي مرتبة الوزراء ، وقد كتبت في هذا العصر أكبر الموسوعات الأدبية من مثل

(١) د. لـويس عـوض / تاريخ الفكر المصري الحديث الخلفية التاريخية / ج١/ ط٣/ ص ٥٦و٥٧/ كتاب الهلال العدد ٢١٥/ دار الهلال القاهرة ١٩٦٩

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، وصبح الأعشي في صناعة ديوان الإنشا للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، والخطط والسلوك للمقريزي، ولولا هذه الكتب ما استطعنا أن نؤرخ للحركات الأدبية في مصر أثناء العصور الوسطي، ويظهر أن القوم قد اتجهوا هذا الاتجاه في التأليف مخافة ضياع العلم، إذ فقد كثير من الكتب حتي عصرهم، فرأوا أن يكتبوا موسوعات تغني عن الكتب المختصة بكل عهد وكل عصر، ومن أهم كتب التاريخ الكبيرة في هذا العصر كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وعقد الجمان للعيني، وأكثر كتابات العصر ينتشر فيها السجع، ومن الكتب التاريخية التي بنيت علي السجع بناء كتاب (عجائب المقدور في نوائب تيمور لابن عرب شاه، واستمرت كتابات الرسائل في هذا العصر مطبوعة بالطابع الذي رأيناه عند القاضي الفاضل من ميل إلي استخدام ألوان البديع من جناس وطباق وتصوير ثم الاقتراض من ألفاظ العلوم ومصطلحاتها)[1]

ثم ينتقل د. شوقي إلي وصف حال العلوم والآداب في العصر العثماني فنراه يقول تحت عنوان (العصر العثماني والعقم والجمود): (كان من سوء حظ مصر أن اشتبك المماليك في حروب مع الدولة العثمانية، وانتهي الأمر بدخول سليم الأول مصر فاتحا عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م)، وبذلك أصبحت مصر جزءا من الإمبراطورية العثمانية، ولم يعد لها نفوذ في سوريا وبلاد العرب، بل أصبحت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية، واستمر شأنها كذلك حتي غزاها نابليون عام ١٧٩٨ م، وما من ريب في أن هذا الطور من حياة مصر يعتبر أسوأ الأطوار التي مرت بها ، فقد عمها ظلام كثيف، وانتشر جو خانق إذ أصبحت ولاية عثمانية بسيطة؛ بعد أن كانت دولة كبيرة ، ومن شأن مصر أنها لا تستطيع أن تتنفس وتزدهر فيها الحضارة إلا إذا كانت أمة مستقلة ذات شأن في التاريخ والسياسة، أما إذا أصبحت مغلوبة علي أمرها فإن أداة العقل والفن فيها تتعطل: وماذا تنتظر من شعب يفقد السيادة علي جيرانه بل علي نفسه؟ لا شك أنه يكتئب، وينكمش مرويا في جذر وطنه باكيا نفسه وتاريخه ، ولعل ذلك ما جعل المصريين يرثون المماليك رثاء حارا، بل لقد رثوا وطنهم رثاء مرا (ابن إياس / بدائع الزهور / ج٣/ ١١١، ١٢٨)، وحق لهم فقد بطش بهم العثمانيون وأخرجوهم من عز إلي ذل، لا من حيث السياسة فقط، بل أيضا من حيث العلم والفن، إذ أخذ سليم الأول معه كثيرا من العلماء والأدباء والمهندسين وأصحاب الحرف وأدوات الترف، ولماذا يبقي هؤلاء في مصر؟ لقد انتهي عصر المماليك، ولم تعد هناك حاجة لفن ولا لصناعة، فليذهب أربابها إلي القسطنطينية، وليذهب معهم العلماء ورجال الفكر، ولتذهب الكتب والمجلدات التي تعتز بها مصر أيضا حتي تفقد مصر كل ما لها من سيادة عقلية وفنية بجانب ما فقدته من سيادتها السياسية ، لقد

(١) د. شوقي ضيف / الفن ومذاهبه في النثر العربي / مكتبة الدراسات الأدبية (٩) / ط١٠/ ص٣٧٧ و٣٧٨/ دار المعارف / القاهرة ١٩٨٣

أصبحت مصر ولاية عثمانية يقيم فيها وال تركي ، وهذا الوالي له ديوان ، ولكن اللغة الرسمية لهذا الديوان هي التركية التي يتخاطبون بها مع الباب العالي

ومعني ذلك أن الدواوين التي كانت تخرج كبار الكتاب في العصور السابقة قد أغلقت أبوابها ، فلم يعد هناك مجال لأن يظهر مثل ابن الشحناء أو القاضي الفاضل أو محي الدين بن عبد الظاهر ، واقرأ في الآثار الكتابية أثناء العصر العثماني فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تقرن إلي أي عصر من العصور السابقة ، وبون بعيد جدا بين كتاب مثل (بدائع الزهور) في التاريخ ، وكتاب آخر مماثل له في عصر المماليك ، فأنت لا تجد عند المقريزي ، ولا ابن تغري بردي ركاكة ولا أخطاء نحوية ولا أخري لغوية كما لا تجد ألفاظا تركية ، أما عند ابن إياس فإنك تجد ضعف التأليف عامة ، فالأسلوب واه ، والأخطاء النحوية كثيرة والألفاظ التركية منتشرة . وإذا تركت هذا الجانب من الكتابة التاريخية إلي الكتابة الفنية وجدتها تلفيقا خالصا من أساليب السابقين ، وهو تلفيق ليس فيه جديد إلا التصنع الشديد لألوان البديع ، ومصطلحات العلوم ، وقد كانت هذه الأشياء توجد في عصر المماليك فتقبل ، لأن الأسلوب كان جزلا رصينا فيستطيع القيام بها ، أما في هذا العصر فالأسلوب واه ضعيف لا يكاد يقوم ، ولعل ذلك ما جعل الشهاب الخفاجي يقول في مقدمة كتابه (ريحانة الألباء) (إن الأدب في هذه الأعصار قد هبت علي رياضه ريح ذات إعصار ، حتي أخلقت عري المحامد ، واسترخي في جريه عنان القصائد ، وتقلصت أذيال الظلال ، وخطب البلاء علي منابر الأطلال ، وعفا رسم الكرام ، فعليه مني السلام)(الشهاب الخفاجي / ريحانة الألباء / الآستانة /ص٤) ، وامض في ريحانة الألباء فستجد صاحبها يتصنع لمصطلحات النحو كما يتصنع لألوان البديع ، وما نزال في أساليب غثة حتي نوفي علي آخر الكتاب فإذا صاحبه يؤلف مقامات كلها مأخوذة من مقامات الحريري بألفاظها ومعانيها وأساليبها ، وإنّا لا نتلوّمه لأن هذه كانت طاقة عصره ، إذ لم يعد هناك مجال للتجديد والابتكار ، فالقوم يعيشون علي التقليد واجترار أعمال السابقين ، وقد جمدت الكتابة الفنية بمصر جمودا ، بل قل تحجرت تحجرا وأصبحت مواتا خالصا أو ما يشبه الموات ، ولم يعد من الممكن أن تعود لها النضرة أو أن تدب فيها الحركة، إلا إذا تضافرت جهود هائلة حتي تخرج من عالمها الكئيب المظلم إلي عالم جديد مشرق فيه نور وفيه حياة ، وفيه بعث وأمل وابتسام)[1].

ونضيف إلي وصف د. شوقي ضيف السابق لضعف مستوي اللغة والأدب في العصر العثماني ما أورده د. حلمي خليل في وصفه لحال اللغة خلال فترة الحكم التركي علي مصر (ثلاثة قرون) في قوله : (إنها اشد فترات التاريخ ظلاما في حياة العالم العرب ومصر خاصة ، فقد فرض الأتراك علي البلاد نوعا من الاحتلال هو في الحقيقة محاولة لقتلها فكريا وحضاريا ، وذلك لأنهم قد عملوا علي امتصاص كل خيرات الشعب ، وأروع قدراته وتعويق ملكة

(١) المرجع السابق / ص ٣٨٨

الإبـداع فيه ، وفي سبيل ذلك نقل الأتراك منذ بداية احتلالهم لمصر والعالم العربي الكثير من العلمـاء والصـناع وعديـدا من الكتب والنفائس، ثم فرضوا لغتهم التركية علي الدواوين، وجعلـوا أهم الأعمال الإدارية في أيدي الأتراك والمماليك ، كما أكثروا من فرض الضرائب، وأهملوا كل إصلاح، ولم يوجهوا أية رعاية أو عناية إلي التعليم، فأغلقت المدارس، بل هدمت، وانتهـبت كتـبها، وكانت النتيجة أن انطفأت شعلة الحياة العلمية والفكرية في مصر إلا من ومـيض خافـت ينبعث من الأزهر الشريف محملا بقيود التخلف وأثقاله ، ولكنه ظل رمزا وملاذا لما بقي من العلوم الإسلامية، وخاصة الدراسات اللغوية، كذلك تعطلت الحياة الأدبية، بل وانحرفت العربية، وفسدت من كثرة الدخيل التركي فيها وزحف العامي علي متنها)[1]، ثم يضـيف د. حلمـي (لقد انعكس كل ذلك علي اللغة العربية ، وامتد إلي لغة الإدارة بشكل خاص ، فالمصطلحات الديوانية أصبحت إما عربية أو تركية أو عربية مشوبة بالتركية، ولم تكن المصـطلحات التـركية خالصـة العنصر، إذ أن اللغة التركية ذاتها كانت مزيجا من الفارسية والعـربية والتـركية .. وقد عمد الأتراك إلي نقل العربية في دواوين الحكومة والإدارة، وقد تأثـرت بذلك فدخلها سيل من الألفاظ التركية، وخاصة التي كانت تدور علي ألسنة الحكام الأتـراك، كمـا استعيرت بعض صيغها فأجريت علي الألفاظ العربية. وإذا كانت العربية قد وصـلت إلي هـذه الصورة القاتمة في الدوائر التركية ، فإنها لم تكن أفضل حالا في الكتابات العـربية الخالصة ، ويكفي لتصوير المستوي اللغوي للعربية في ذلك العصر ما كتبه الجبرتي في تاريخـه لتظهـر لنا هذه الصورة ركاكة اللفظ، وتفشي العامية في الأسلوب، وكثرة التوليد المرضي الذي تترهل به اللغة ولا ينميها ...الخ)[2].

ورغم قسوة الحكم القاطع الذي اتخذه د.شوقي ضيف تجاه العصر العثماني من بدايته، والقسـوة الأشد التي بينت ما آل إليه حال العربية خلال فترة الحكم العثماني التركي (ثلاثة قرون) وذلك من خلال كتابة د. حلمي خليل عن المولد في آخر الحكم التركي للبلاد، فإن ما قالاه جاء ضوءا كاشفا لمثالب العصر ، تاركا لنا البحث عن الإيجابيات ، أو علي أقصي تقدير إرهاصات للإيجابيات التي بدت تباشير فجرها من خلال تلك الفترة وظلامها، وهذا ما وجدناه في معالجات المؤرخين والمفكرين المعاصرين من مختلف المشارب، وفيما سوف نتناوله من شواهد القـرن العاشر الهجري التي تجمع بين نهايات عصر المماليك الضعيفة سياسيا، وبدايات العصر العـثماني القوية سياسيا سوف تتضح تفاصيل بعض الأمور التي تناولها القوم مجملة، عسي أن توضـح معالجتنا اللغوية لهذه النماذج أمرا جديدة، أو تؤكد علي رؤي قديمة، وفيما يلي تبدأ المعالجـة لنماذج مختلفة من كتابات القرن العشر، وهي معالجة تجمع نموذجين الأول نموذج من الكتابة التاريخية الأدبية، والثاني نموذج من الكتابة اللغوية الأدبية، والله الموفق.

---

(١) د. حلمـي خلـيل / المـولد دراسة في نمو وتطور اللغة العربية في العصر الحديث / ط١/ ص ١١:٩ / الهيئة المصرية العامة للكتاب / الإسكندرية ١٩٧٩

(٢)المرجع السابق / ص١٢ : ١٤

الفصل الأول

نموذج من الكتابة التاريخية الممثلة للكتابة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري

تعـد الكتابة التاريخية في تلك الآونة كتابة إعلامية إعلانية يغلب عليها أسلوب كتابة اليوميات، حيث كان المؤرخون يسجلون التاريخ اليومي لكل الأحداث التي مرت بهم بشكل وثائقـي إعلامي ، وقد حفلت تواريخهم بالأحداث والأسماء ، وترتبت ترتيبا منطقيا من الأقدم إلي الأحدث ، فجاءت المقدمات فيها منذرة بالنتائج ، كما حفلت هذه الكتب بالترجمة التامة للشخصيات المهمة في ميادين السياسة والعسكرية والاقتصاد والثقافة والتعليم والدين ، كما نافست كتب التاريخ في تلك الحقبة كتب الخطط في السرد المطول لوصف الأبنية والآثار التي أقامهـا أهل هذه الحقبة ، ولما كان هؤلاء المؤرخون قد تربوا وتعلموا منذ بداياتهم تعليما دينيا أزهريا في الغالب فإننا نجدهم لا ينسون تطعيم كتاباتهم بالاستشهادات الأدبية الشعرية والنثرية ، ولأن حمولة الكتابة التاريخية عبء ثقيل علي كاهل كتاب التاريخ بسبب تسارع الأحداث ، وقصر الأعمار مع حرص المؤرخين علي ملاحقة كل شاردة وواردة في أحداث زمانهم ؛ الأمر الذي جعلهم يدونون الأحداث كيفما اتفق ريثما تواتيهم الفرصة لمعاودة ما كتبوا ، والنظر فيه بالتنقـيح ، وربمـا غلب علي بعضهم حكم العادة اللغوية اللهجية اليومية التي يتعامل بها مع الناس في الشوارع والأسواق فغلبت علي قلمه أثناء التدوين ، وربما حرص أيضا علي تسجيل اللحظة ساخنة كما هي دون تنقيح لغوي كما يصنع بعض الصحافيين وبعض مذيعي نشرات الأخـبار من مواقع الأحداث اليومية ، فينقلون نبض الشارع السياسي دون زخرفة أو تزيّد .

وفي النموذج الذي ننقله عن ابن إياس من كتابه التاريخي المهم (بدائع الزهور في وقائع الدهور) وهـو الكتاب الذي يؤرخ بالتحديد للثلث الأخير من العصر المملوكي (نهاية القرن التاسع الهجـري والربع الأول من القرن العاشر الهجري)،ثم يواصل التأريخ (لبقية الثلث الأول من القـرن العاشر الهجري المواكب للسنوات السبع الأولي من الحكم العثماني للعالم العربي حتي وفاة ابن إياس سنة ٩٣٠هـ) ، وتمثل الفترة التاريخية التي عاصرها ابن إياس ، وكان شاهدا علـي أحـداثها حقـبة زمنية ثرية بالأحداث المتلاحقة ، والتوترات والاضطرابات التي تبهر الأنفـاس وتجعلـها تتلاحق في محاولة متابعتها ، وتدوينها قبل فواتها ونسيانها في غمرة حلول أحـداث جديدة محلها ، من هنا جاء تدوين ابن إياس لتاريخه مليئا بالعيوب اللغوية والنحوية والأسـلوبية التي أخذها عليه معظم النقاد الذين تناولوا لغته فرأوا فيها لغة مهلهلة ، ركيكة ، ولم تكن المقارنة بينه وبين من سبقوه من المؤرخين في صفه ، حيث جاءت كتب التاريخ السابقة علـيه في أسلوب أفضل ورونق أبهي ، وخص النقاد منها (صبح الأعشي في صناعة دواوين الإنشا للقلقشندي) و(النجوم الزاهرة لابن تغري بردي) و(عقد الجمان للعيني) و(مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري) و(الخطط والسلوك للمقريزي) ، وهي مجموعة الكتب التي ألفـت في فترة ازدهار واستقرار دولة المماليك خلال القرنين السابع والثامن الهجريين ، فإذا

أضـــيف إلي ما سبق اختلاف الأصل اللغوي الذي ينتمي إليه كل من الشخصيات السابقة ، واختلاف طريقة تكوينه وتعليمه ، ونختصر المسافة بتعريف نشأة ابن إياس علي النحو التالي : (ولـــد محمد أحمد بن إياس المصري الجركسي الأصل يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر ســـنة ٨٥٢هـــ ، وترجع جذور تلك الأسرة الجركسية (إلي ما قبل سيطرة العثمانيين وأيامها في مصر بمائة وخمسين عاما علي الأقل ، وأبوه الشهابي أحمد بن إياس الفخري بن جنيد ، وكان أصـــله من مماليك الظاهر برقوق ، عاش أبوه أربعا وثمانين سنة (ت ٩٠٨هـــ) عاش له ثلاثة أولاد صبيان وبنت ، وكان كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة ، وزوج ابنته (أخت محمد) لقرقماس المصارع أحد الأمراء العشراوات[١].

أمـــا شيوخه الذين تعلم عليهم فكان منهما اثنان من أعظم علماء عصره وأشهرهم وهما:

١- عـــبد الباسط بن الفرسي خليل الحنفي، وكان معظما عند الأتراك وعارفا باللغة التركية، وله شعر ضمنه نقدا سياسيا في محاولة طومان باي الدوادار هدم مدرسة السلطان حسن، وفي عـــزل الســـلطان قانصو القاضي علاء الدين بن الصابوني، وكان والد شيخه قد حج بالناس أميرا، وأجازه في الحديث الحافظ بن حجر، وكان له الفضل في تكوين ابنه العلمي، ومن مؤلفات شيخه عبد الباسط بن الفرسي تاريخه الكبير المسمي (الروض الباسم) وتاريخه (ســـيل الأمل في ذيل الدول)، وله مصنف في التوقيعات علي حروف المعجم، وآخر في علم الطب، وله شروح علي كتب الحنفية، وتوفي (٩٢٠هـــ)[٢].

٢- جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـــ)، ويعتبر السيوطى نفسه من المجتهدين والمتفرد بـــالعلم علي رأس المائة التاسعة، وكان يأمل أن يصل في الفقه إلي رتبة شيخه سراج الدين البلقـــيني، وفي الحديث إلي رتبة الحافظ بن حجر، كما يقول عن نفسه أنه رزق التبحر في ســـبعة علوم: التفسير، الحديث، الفقه، النحو، المعاني، البيان، البديع، كما أنه جعل اتصاله بالعلـــوم وإتقانه لها علي ستة مراتب: أولا مرتبة التبحر في العلوم السبعة السابقة، وتليها المـــرتبة الثانـــية هـــي علوم: أصول الفقه، الجدل، التصريف، ثم المرتبة الثالثة في الإنشاء، والترســـل، والفرائض، والمرتبة الرابعة هي القراءات، والخامسة هي الطب، والسادسة في علـــم الحساب وهو أبعد العلوم عن ذهنه، وقد ألقي الله في قلبه كراهة المنطق[٣]، وهكذا أصبح حظ السيوطي من المعقول أقل من حظه من المنقول الذي ساعدته قوة حافظته علي

---

(١) ابـــن إيـــاس / بدائع الزهور في وقائع الدهور / تحقيق د. محمد مصطفي / ج١ / ص / سلسلة الذخائر / الهيئة العامة لقصور الثقافة / القاهرة ١٩٩٨

(٢)المصدر السابق / ص

(٣) محمـــد العروســـي المطـــوي / جلال الدين السيوطي / ط١ / ص ٣١ / دار الغرب الإسلامي / بيروت ١٩٩٥

المضـــي فيه، ويتضح ذلك من حفظه القرآن كله وعمره ثماني سنوات، واشتغاله بعد ذلك بحفظ كتب التفاسير وألفية ابن مالك، وحفظه لمائتي ألف حديث، واستمراره في الاشتغال بـــالعلم منذ سن الرابعة عشرة ، وتعلمه علي يد مائة وخمسين شيخا من شيوخ عصره مع طول ملازمته لهم ، ثم اشتغاله طول حياته بالتدريس في المدارس والخوانق ، وكذلك اشتغاله طول حياته بالعلم والتأليف الذي تفرغ له في نهاية حياته ، ويعتبر السيوطي من كبار المؤلفين في ســـائر أعصر التأليف العربي ، واكتسب بذلك شهرة اخترقت الآفاق ، لكنه لم يكن له منهج مختص ، بل كان يؤلف في جميع فروع الثقافة الإسلامية التي تمكن من الاطلاع عليها ومعـــرفتها ، وقد اختلف العدّاون لتآليف جلال الدين السيوطي ما بين الستمائة مؤلف ، والأربعمائـــة وخمســـة عشر مؤلفا ، لكن عددا كبيرا من هذه المؤلفات لم يكن سوي أبحاثا قصيرة ، أو رسائل صغيرة في مسألة من المسائل ، أو إجابة عن سؤال ، ورغم ذلك فجلال الـــدين الســـيوطي يعددها في كتابه (حسن المحاضرة) بفخر وإعجاب مباهيا بها و مكاثرا فيقول :(وبلغت مؤلفاتي الآن ثلاثمائة كتاب عدا ما غسلته ورجعت عنه)[1] ... ومن أهم مؤلفات السيوطي المتفق عليها : (الأشباه والنظائر، تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك، الـــدر المنثور في التفسير بالمأثور، والمزهر في اللغة، والخصائص الكبري، والإتقان في علوم القرآن، وبغية الوعاة، وتحفة المجالس، وطبقات الحفاظ، وجمع الجوامع وهمع الهوامع، وحسن المحاضرة وغيرها، وجلها من المؤلفات الموسوعية التي اشتهر بها السيوطي وأتراب عصره[2].

وقـــد انـــتقلت عدوي التأليف الموسوعي من الأستاذ (السيوطي) إلي التلميذ (ابن إيـــاس)، وإن كان التلميذ قد عكف علي تخصص واحد هو التأريخ الذي ضمنّه كل ما يريد قـــوله، ووضـــع فيه كل ما يريد تأليفه وتصنيفه من تاريخ وتراجم، وسير، ونثر وشعر، وفقه، وغيره من الأمور التي عنّت له .

٣- ومـــن شيوخ ابن إياس أيضا كمال الدين محمد بن الهمام ، درس عليه الفقه الحنفي وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة .

٤- ومن علماء الحنفية الذي نوه به أيضا الشيخ أحمد ابن مبارك شاه

٥- وكذلك القاضي شهاب الدين أحمد المعروف بقرقماس ، وكان أيضا من علماء الحنفية

٦- وسعد الدين بن الديري الذي تولي القضاء ثلاثين سنة .

أما عن أصحابه فكان منهم :

- تقي الدين محمود أحد اعيان الشهود بالمدرسة الصالحية
- شمس الدين أبو اليمن السنهوري

---

(١) المرجع السابق / ص ٣٤و٣٥

(٢)المرجع السابق / ص ٣٥و٣٦

كمـــا عاش عصر حركة أدبية تتسم بخفة الروح من الشعراء، والنظرة الناقدة، ولعل مـــن أشهر الشعراء فيها من أسموهم (السبعة الشهب) .. تسمية لها دلالتها علي الاعتزاز بهذه الصحبة الشعرية، تأثر بهم ابن إياس في شبابه، وهم: الشهاب بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـــ)، الشهاب بن الشاب التائب، الشهاب ابن أبي السعود (ت٨٧٠هـــ) ، الشهاب بن مبارك شاه الدمشـــقي، الشـــهاب بـــن صالح (٨٧٣هـــ) ، الشهاب الحجازي الأنصاري (٨٧٥هـــ)، وآخرهم الشهاب المنصوري الذي رثاهم[1]

النص من كتاب ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور

ورد هـــذا الـــنص في وصفه لواحدة من وقائع غدر المماليك ببعضهم واضطراب أحوالهم بسبب الصراع علي السلطة :

(وفي رجـــب (٩٠٥هـــ) في ليلة الخميس مستهله ، جري من الحوادث الغريبة أن الأتابكـــي قصـــروه طلع القلعة ليبات عند السلطان ، وكان يبات بالقلعة ليلة الاثنين ، وليلة الخميس في تلك الأيام ، فلما طلع علي جاري العادة ، وأكل السماط مع السلطان ، وجلسوا ساعة يتحدثون ، فقال له السلطان : والله قلبي خائف منك يا أمير كبير ، فلما صلي العشاء مع الســـلطان أمر ببعض الخاصكية بالقبض عليه ، فأقاموه من مجلس السلطان ، وتوجهوا به إلي المكـــان الذي أنشأه الظاهر قانصو بجوار الدهيشة ، فأقام هناك أياما ، ثم أمر بخنقه فخنق تحت الليل ، وغسّل وكفّن وأنزلوه من باب الدرفيل ، فدفن في تربة الصاحب خوشقدم الزمام التي بالقرب من حوش العرب ، وكان قصروه أميرا جليلا مهابا مبجلا ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وتولي عدة وظائف سنية منها : نيابة حلب ، ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر ، وكان أيام العادل هو الآمر والناهي في الموكب ، وإذا نزل من القلعة تتوجّه معه الأمراء إلي الأزبكية ، ويقـــام له هناك مواكب تفوق علي موكب السلطان ، ثم إنه صنع وليمة حافلة بالأزبكية ، وجمع قراء البلد والوعاظ ، وعزم علي سائر الأمراء ، وعمل أسمطة حافلة جدا ، وحضر عنده أكابر الأمراء وأصاغرهم وباتوا عنده ، وأنعم في تلك الليلة علي جماعة من الأمراء بخيول ومال حـــتي استمال قلوبهم ، وكان يوصف بالكرم الزائد مع شجاعته ، فأوعد العسكر بكل جميل فمالـــوا إليه ، وعوّلوا في السلطنة عليه ، فلما بلغ العادل ذلك استغنم الفرصة وبادر بالقبض عليه ، وخنقه تحت الليل ودفنه ، فكان كما يقال في الأمثال :

وانتهز الفرصة إن الفرصـــــة تصير إن لم تنتهزها غصّـــــة

وقد قلت في واقعة قصروه عدة مقاطيع منها :

اعجبوا من أمر قصروه الذي ملكه بالشام جهلا قد تـــــرك

وأتي مصرا فما نال المنـــــي ورمـــاه الدهر في وســـط الشرك

وقولي :

---

(١)بدائع الزهور / ج١/ ص

كان قصروه قصيرا عمره خانه الدهر فولّى مسرعا
طلبوا التسليم منه فأبي ثم ما سلّم حتي ودعا

وقولي :

لم ينل قصروه ما أمّله من علوّ فاته في دهره
رام كيدا للمليك عادل فرماه كيده في نحره

ولكن كان العادل باغيا علي قصروه، ووشت بينهما الأعادي بالكلام ، حتي وقع بينهما وجري ما جري من القتل ، وكان قصروه سببا لنصره بالشام ومصر ، وكان يشيل التراب علي كتفه مع الفعلة عند حفر الخندق وقت محاصرة القلعة عند حضور العادل من الشام ، وما أبقي ممكنا في نصرة العادل علي الأشرف جان بلاط، وآخر الأمر قتله ظلما ، فلم يعش بعده العادل سوي مدة يسيرة وقتل هو أيضا ، قال الإمام عليّ كرم الله وجهه : من سل سيف البغي قتل به ، وفي الأمثال:

البغي داء ما له دواء ليس لملك معه بقاء

وكان بين العادل طومان باي وبين قصروه أيمان عظيمة ، ومواثيق وعهود ، وما كان قصروه يظن أن العادل يخون تلك الأيمان ، فكان كما قيل :

وحلفت أنك لا تميل مع الهوي أين اليمين وأين ما عاهدتني ؟!

وكان قصروه عفيفا عن المنكرات ، شجاعا بطلا سخي النفس ، غير انه كان عنده بطش ، وخفة ، وسلامة باطن ، ومات وقد قارب الخمسين سنة من العمر ، ووكزه الشيب ، فلما مات تأسف عليه الكثير من الناس ، وزال حب طومان باي العادل من قلوب الناس كأنه لم يكن ، ولم يستحسن أحد منه قتله لقصروه الذي كان سببا لنصرته ، فنفرت منه قلوب الرعية ، وكان هذا علي غير قياس كما يقال :

لا تشكرن امرأ حتي تجرّبه ولا تذمّنه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تختبره خطا[1] وذمك المرء بعد الشكر تكذيب

ثم إن العادل قبض علي يخشباي نائب حلب، وقبض علي ترازجوشن أمير آخور ثاني، ثم قبض علي جان بردي الغزالى كاشف الشرقية ، وقبض علي آخرين من الأمراء العشرات والخاصكية ممن كان من عصبة قصروه.....الخ الأحداث وقتئذ)[2]

وفيما يلي نبدأ بدراسة النص السابق لغويا ونحويا باعتبار النص عينة ممثلة للغة التي كان يكتب بها ابن إياس .

(١) اعتاد ابن إياس تخفيف الهمزة ، وقد وردت الهمزة مخففة في كل كلماته علي طريقة أهل القاهرة
(٢) بدائع الزهور / ج٣/ ص٤٦٧:٤٦٩

أولا : اللغة :

بعيدا عن الانطباعات الارتجالية أبدأ هذه الدراسة بالتعرف علي قاموس ابن إياس ، وذلك برصد مفرداته الواردة في النص وعمل مقارنة إحصائية بين ما ورد منها مطابقا لفصحى العربية ، وما جاء منحرفا عن الفصحى ، وما جاء منها معرّبا أو دخيلا ، مراعية في ذلك التصنيف طبقا للأنواع الصرفية من جهة ، والتقسيمات الدلالية من جهة أخري .

١) الأسماء المفردة :

ورد في النموذج المطروح هنا مائة وأحد عشر من الأسماء الجامدة ، وأربعة وأربعون مشتقا،كان من الجامدة ثمانية وسبعون من أسماء الذوات ، واثنان وثلاثون مصدرا وقد توزعت الأسماء علي النحو التالي :

أولا : أسماء الذوات :

توزعت أسماء الذوات بين :

- **أسماء خاصة بالإنسان:** وقد ضمت:- ألفاظا عامة علي الإنسان منها (امرأ – المرء – جماعة– الرعية – عصبة– الناس) – ألفاظا خاصة بأعضاء جسم الإنسان (قلب وقلوب – كتف – نحر– وجه) – ألفاظا خاصة بالنفس والأصل والضمير(أصل – باطن – نفس) – ألفاظا خاصة بطعام الإنسان وشرابه ودوائه (دواء – سماط وأسمطة – وليمة) – ألفاظ خاصة بوظائف الإنسان وحرفه وألقابه الوظيفية (أتابكيّ وأتابكية[1] – أمير وأمراء – أمير آخور – إمام – خاصكية[2] – السلطان والسلطنة – عسكر– فعلة – ملك ومليك – وظائف) وقد لوحظ وجود النسب لألفاظ الألقاب الأعجمية بطريقة النسب العربية بإضافة ياء النسب المشددة كما في (أتابكيّ وأتابكية)
- **أسماء الأعلام وضمت:** أعلام الناس والأجناس (تمرز جوشن – جان بردي الغزالي – جان بلاط – خشقدم الزمام – طومان باي – عرب – عليّ– قانسوه – قايتباي – قصروه – يخشباي) – وأعلام البلاد والأماكن (أزبكية – حلب – حماه – الدهيشة –

---

(١) الأتابك: اصطلاح تاريخي مشتق من لفظين تركيين هما (آتا) بمعني أب أو شيخ محترم، و(بك) بمعني نبيل أو شيخ أو أمير ، ويرجح أن الأتابكية كانت من بقايا التركمان القديمة التي أحياها السلاجقة ، وكانت الأتابكية زمن ابن إياس وظيفة عسكرية رفيعة المستوي موضعها رئاسة أمراء الجيش ، ويعبر عن صاحبها بأتابك العسكر (القاموس الإسلامي / ج١ / ص ١٨)

(٢) الخاصكية : مكونة من كلمة عربية (خاص) ولاحقة تركية (كي) وهي تعطي معني صاحب المهنة) والهاء علامة الجمع ، والخاصكي أيضا لفظ عربي فارسي تعني نديم السلطان والمقرب والجمع خصكيان لأن الألف والنون علامة الجمع في الفارسية (دائرة المعارف الإسلامية / ج ١٦/ ص ٣٥٨-٣٦٠) والمعجم الفارسي / ص ١٦٥٤٦٩:٤٦٧

الشـــام – مصـــر)، وقد لوحظ غلبة العجمة علي أسماء الأعلام فقد ورد اثنا عشر علما أعجمـــيا ، بيـــنما كانت الأعلام العربية خمسة فقط ، ولوحظ أيضا وجود بعض الأعلام الأعجمية ولقب عائلتها منسوب للعربية بياء النسب المشددة مثل (جان بردي الغزالي)

- **أسماء الجماد وضمت:** أسماء الأماكن والأرض والمباني والبلاد (البلد – تربة وتراب – حـــوش – خـــنادق – قلعة – مكان) ومن أجزاء المباني ورد لفظ (باب) – أسماء الآلات (الزمام – سيف – شرك) – ألفظ المال والثروة (مال)
- **أســـماء الحيوان:** وضمت كلمتين: (خيول – والدرفيل)، وقد وردت كلمة درفيل – وهو لفظ أعجمي – في التركيب (باب الدرفيل) وهي تسمية لأحد أبواب القلعة ، وجاء الاسم علي طريقة نطق عامة أهل مصر ، وصحة نطقها عن لغتها (دلفين)
- **أســـماء الجمع وأسماء الجنس:** ورد من أسماء الجمع (جماعة – خيول –الرعية – عصبة – الناس) ، وورد من أسماء الجنس(عرب – عسكر – الليل)
- **أســـماء الـــزمان:** وضـــمت: أسماء عامة غير محددة (الدهر– عمر – ليل – مدة – وقـــت) – أســـماء محـــددة (ساعة – سنة – العشاء – ليلة – أيام)– أسماء أعلام الأيام والشهور (الاثنين – الخميس – رجب)
- **أســـماء الأعـــداد:** وضمت: من الأعداد (خمسين – العشرات) – ومن كناية العداد (عدة)
- **أسماء المعنويات:** وضمت: (أمر– عهود – فرصة – مثل وأمثال – هوي – يمين وأيمان)

وضـــمت المصـــادر ســـتة وعشرين مصدرا من مصادر الثلاثي التي توزعت علي النحو التالي:

- **مصادر أفعال الحركة وضمت:** (بطش – جوار – حضور – حفر – خنق – دفن – غصّة – القبض – القتل)
- **مصادر أفعال المعنويات وضمت:** (بغي – بقاء – جهل – حب – خطا – خفةً – ذمّ – سلامة – شجاعة – شكر – ظلم – علو– قرب – قياس – كرم – كيد – نصرة – نيابة)

– وضـــمت المصادر أيضا أربعة من مصادر الرباعي كان منها اثنان من مصادر أفعال الحركة وهما (محاصرة – تسليم) واثنان من مصادر الأفعال المعنوية وهما (تجريب – تكذيب)

– أما المشتقات فقد ضمت :

– اسم الفاعل: وكان عدده ثمانية عشر اسما توزعت علي النحو التالي:

اســـم الفاعـــل من الثلاثي وضم : اثني عشر اسما دالا علي صفات في الأشخاص والأشياء والزمن (آمر – باغيا – جاري – حوادث – حافلة – خائف – زائد – صاحب –

قرّاء – ناهي – واقعة – وعّاظ) – وضم أيضا أربعة أسماء دالة علي لقب من ألقاب الحكّام (عادل – ظاهر – كاشف – نائب)

أما اسم الفاعل من غير الثلاثي فقد ورد فيه فقط (مسرع – ممكن)

– **اسم المفعول:** وكان عدده خمسة أسماء ورد اثنان منها في الثلاثي وهما (مقاطيع –وهو علـي غير قياس)[1] و(مماليك)، وورد ثلاثة من غير الثلاثي وهي في الصفات (مبجل – منكرات – مهاب)

– **الصفة المشبهة:** وضمت سبعة عشر اسما كلها من الثلاثي، جاء منها ثلاثة عشر اسما بوزن فعيل (جليل – جميل – سخيّ – سنية – أصاغر – عظيمة – عفيفة – غريبة – قصير – كبير وأكابر– كثير – يسيرة) – وجاء منها واحد بصيغة فعل – بفتح الفاء والعين (بطل) – كما ورد واحد بصيغة فعال – بضم الفاء و فتح العين (شجاع) – وورد واحد بصيغة فاعل (آخر) – وورد واحد بصيغة أفعل (أشرف)

– **اسم المكان واسم الزمان:** ورد اسم واحد للزمان وهو من غير الثلاثي (مستهل) – وورد اسمان للمكان من الثلاثي وهما (مجلس – موكب ومواكب).

٢– الأسماء التي وردت في تراكيب:

أولا: التراكيب وأنواعها :

اعتمد ابن إياس في كتابته دائما علي التراكيب من نوع (المضاف والمضاف إليه) (الصفة والموصوف) و(المعطوف والمعطوف عليه)(البدل والمبدل منه) و(الأعلام المركبة تركيب مزج أو تركيب إضافة).

– **تراكيب الإضافة:** وضمت: (ليلة الخميس) (ليلة الاثنين) (مجلس السلطان) (جاري العادة) (تحت الليل) (باب الدرفيل) (حوش العرب) (تربة الصاحب خوشقدم) (مماليك الأشرف قايتباي) (نيابة حلب) (نيابة الشام) (نيابة حماه) (أيام العادل) (موكب السلطان) (وقت محاصرة القلعة) (حفر الخنادق) (نصرة العادل) (سيف البغي) (سلامة باطن) (سخي النفس) (قلوب الناس) (قلوب الرعية) (غير القياس) (أمير آخور) (كاشف الشرقية) (آخر الأمر).

– **تراكيب الصفة والموصوف:** وقد ضمت: (أمير كبير) (وظائف سنية) (وليمة حافلة) (الكرم الزائد) (أيمان عظيمة) .

– **تراكيب المعطوف والمعطوف عليه:** وضمت: (خيول ومال) (الشام ومصر) (مواثيق وعهود) (بطش وخفة) (الآمر والناهي) .

---

(١) استخدم ابن إياس لفظ (مقاطيع) بوزن مفاعيل ، وصحتها بالفصحي (مقاطع أو مقطوعات)

- **تـراكيب المـبدل والمبدل منه:** وضمت: (رجب مستهله) (الأتابكيّ قصروه) (الصاحب خوشقدم) (الأشرف قايتباي) (المليك عادل) (الأشرف جان بلاط) (العادل طومانباي) (تمراز جوشن أمير آخور ثاني) (جان بردي الغزالي كاشف الشرقية)
- **تـراكيب الأعـلام (تـركيب مزج أو تركيب عطف):** وضمت الأعلام الأعجمية (خوشقدم) (جان بلاط) (جان بردي) (طومانباي) (يخشباي) (قيتباي)

ودراسة هذه التراكيب عند ابن إياس توضح أنه :

- كـان يعتمد أكثر علي تراكيب الإضافة في توضيح الزمن وهل كان يقصد صباح اليوم أو مسـاءه كمـا في قـوله (ليلة الخميس) (ليلة الاثنين)، كما اعتمد عليها في محاولة التأريخ الدقيق، وذلك بربط الزمن بحدث معين كما في (أيام العادل) (وقت محاصرة القلعة)، مع أنه استخدم التركيب (آخر الأمر) للدلالة علي زمن مطلق دال علي نهاية أي شيء أو عاقبته، كمـا استخدم التركيب (تحت الليل) وهو مختصر التعبير المشهور (تحت جنح الليل) الذي يكنّي عن عمل الشيء في الخفاء، كما استخدم تراكيب الإضافة أيضا لتحديد المكان كما في قـوله (مجلـس السلطان) (جوارالدهيشة)[1] (باب الدرفيل) (تربة الصاحب خوشقدم) (حـوش العرب) (موكب السلطان) ،كما جاء بتركيب الإضافة كذلك للدلالة علي نسبة وظـيفة معيـنة لشخص معين، أو لمكان معين كما في قوله (مماليك الأشرف قايتباي) (نيابة حـلب) (نيابة الشام) (نيابة حماه) (كاشف الشرقية) (أمير آخور)، ولم يقتصر علي هذا بل انـتقل إلي إضافة توضيحية للمعنويات من أمثلة (سيف البغي) وهو من قبيل إضافة المشبه للمشـبه بـه في إطار التشبيه البليغ وقصد به مطلق الظلم، و(سلامة باطن) وهي إضافة تخصـيص من قبيل إضافة نكرة إلي نكرة، قصد بها سلامة نية الإنسان وثقته بمن لا يستحق الـثقة، و(سـخي النفس) وهو من قبيل إضافة معنوي إلي معنوي، و لكنه قصد به الكرم المـادي والمعنوي ، كما استخدم التركيبين (قلوب الناس) و(قلوب الرعية) وفيهما أضاف اسم جمع مادي إلي جمع تكسير مادي، لكنه جاء للدلالة علي معنوي وهي المشاعر المستكنة داخل الناس تجاه الحاكم، وأخيرا جاءت الإضافة (نصرة العادل) من قبيل إضافة معنوي إلي معـنوي، لكـن الثاني منهما انتقل من الاستخدام علي سبيل الدلالة المعنوية الخالصة إلي الاستخدام علي سبيل اللقب الرسمي للحاكم، وجاءت لتدل علي مطلق المساندة والنصرة، وجاءت الإضافة (غير القياس) بإضافة المصطلح المنطقي قياس إلي أداة الاستثناء غير، للدلالة علي مخالفة المقارن للمقارن به في موقف ما .

---

(١) ورد فـي كـتاب ابـن إيـاس واللغة / د. أحمد ماهر البقري / ط١/ص٨٤/ المكتبة الجامعية / الإسـكندرية ١٩٨٩أن تصغير دهيشة – اسم مكان – لا يستدعي مكبره الدهشة ، بمعني أنه ليس مقصـودا بالتصـغير، وفي معجم الألفاظ التاريخية (الدهيشة قيسارية أو خان أو وكالة يبالغ في تحسينها حتي تصير مدهشة فهي مكان تجاري مبالغ في زخرفته) ص ٧٦و٧٧

– وقد كان تركيب البدل والمبدل منه في المرتبة الثانية بعد تركيب الإضافة حيث وردت فيه تسعة تراكيب ، كان منها ثمانية بدل كل من كل ، وواحدة بدل جزء من كل ؛ وذلك لأن كتاب بدائع الزهور قد حفل بذكر أشخاص الأعلام مقرونة بألقابها الوظيفية السياسية أو العسكرية للتمييز بين رتب الأسماء المتشابهة من جانب ، ولتوثيق إسناد الأحداث لأصحابها مرتبطة باختصاصاتهم الوظيفية المعروفين بها من جانب آخر ، كما اتسمت تراكيب البدل والمبدل منه (بدل كل من كل) بزيادة نسبة الألفاظ غيرالعربية من تركية وغيرها خاصة في أسماء الأعلام المبدل منها فوجدنا أمثلة من نوع (الصاحب خوشقدم) (الأشرف قايتباي) (العادل طومانباي) (الأشرف جان بلاط) (الظاهر قانسوه) ، وفيها جاء البدل عبارة عن صفة مشبهة بوزن فاعل تحولت إلي لقب عربي مثل الصاحب ، والأشرف ، والعادل ، والظاهر ، وجاء المبدل منه علما أعجميا من أصل فارسي أو تركي أو تتري ، وقد عكس ابن إياس الترتيب في أمثلة أخري فقال: (طومان باي العادل) (جان بردي الغزالي كاشف الشرقية)، وقد دل استخدام الحكام الأتراك آنذاك للألقاب والصفات العربية علي حرصهم – كما أكد المؤرخون –علي إضفاء صفة الشرعية العربية الإسلامية علي حكمهم[1]، ومع ذلك فقد وردت وردت أيضا أمثلة من نوع (تمرز جوشن أمير آخور) الذي جمع العجمة في البدل والمبدل منه ، كما سبق فيه العلم اللقب أو الوظيفة ، ومنه (الأطابكي قصروه) وفيه جمع بين عجمة الاسم و عجمة اللقب أيضا ، وفيما عدا هذا النوع من التراكيب لم ترد ألفاظ أعجمية سوي بعض أسماء البلدان ، وبعض أسماء الأحياء .

– أما تراكيب الصفة والموصوف فكانت خمسة تراكيب لم يخرج أيّ منها عن المألوف من نوع (أمير كبير – أسمطة حافلة – وليمة حافلة – وظائف سنيّة – أيمان عظيمة) وقد لوحظ سيادة نموذج الصفة والموصوف النكرة عنده ، وهو نمط يستخدم للتعظيم والتهويل ، كما يستخدم أيضا للتحقير والتهوين ، وكان قد ورد عنده نموذج واحد في الوصف السببي في الشعر الذي قاله في الأحداث الواردة وهذا النموذج هو (كان قصروه قصيرا عمره)

– واقتصرت أمثلة تراكيب المعطوف والمعطوف عنده أيضا علي خمسة تراكيب لم تخرج هي أيضا عن المألوف من نوع (الآمر والناهي – بطش وخفة – خيول ومال – مصر والشام – مواثيق وعهود) ، وقد تعددت أنواع المعطوفات وتنوعت ولكنها وردت منضبطة في إطار قواعد العطف : (فقد عطف معرفة علي معرفة ، ونكرة علي نكرة ، كما عطف جامدا علي جامد ، ومشتقا علي مشتق ، وعلما على علم ، وجمعا علي جمع)

---

(١)أكد ت علي ذلك د. رشيدة عطا في بحثها المنشور في أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بعنوان (حكومة مصر عبر العصور) بالمجلس الأعلي للثقافة من ٢٢ –٢٣ إبريل ٢٠٠٠م / الهيئة المصرية العامة بالقاهرة ٢٠٠٣ / سلسلة تاريخ المصريين / العدد ٢٣٧(وورد في بحثها المعنون بـ (شرعية الحكم في دولة المماليك) ص ١٥٣:١٦٩)

– و في تراكيب الأعلام استخدم تركيب المزج ، و تركيب الإضافة ، ووردت أسماء الأعلام الأعجمية مركبة من تركية وفارسية وتترية من أمثلة (خوشقدم – جان بلاط – جان بردي – طومانباي – قيتباي – يخشباي) ، و هذه الأعلام المركبة تدل علي وجود طريقة مشتركة بين اللغات في وضع أسماء الأعلام المركبة ، خاصة طريقة التركيب المزجي ، وطريقة تركيب الإضافة ، وقد كان من الطبيعي أن يكثر استخدام ابن إياس لهذا النوع من الأعلام لأنهم بالفعل كانوا أشخاص الزمن الذي يتناوله ، وكانوا أبطال الأحداث التي يتكلم عنها ، ويدل هذا علي أن الغلبة كانت لهذا العنصر في هذا الزمن ، مع تنحي العنصر العربي بشكل عام ، والمصري بشكل خاص عن مناصب هذا الزمان بكافة أشكالها إلا في أضيق الحدود ، وأكثرها هامشية

٢) الأفعال :

عند دراسة الأفعال وحدها دون ورودها في تراكيب نجد أنه قد ورد في الفقرة السابقة سبعة وسبعون فعلا تتوزع علي النحو التالي :

– **من ناحية التوزيع الدلالي :** تتوزّع الأفعال علي النحو التالي :

أولا: أفعال الحركة: وتنقسم:

– **أفعال الحركة السريعة: من الماضي:** (أكل – بادر– جري – حضر – خنق – دفن– ودفن – رماه – زال – سلّ – سلّم – صلي – صنع – طلع – عمل – غسلّ استخدم – قبض – قتل وقتل المبني للمعلوم والمبني للمجهول – كفّن وكفن المبني للمعلوم والمبني للمجهول – نزل وأنزل– نفر– توجّه – ودّع – وقع– وكز– ولّي)

– **ومن المضارع:** (يشيل –– تنتهز - تتوجّه)

– **ومن أفعال الأمر:** انتهز

ثانيا :أفعال الحركة البطيئة : وتضم من الماضي : (أبقي – ترك – جلسوا– جمع – قارب – أقام –كرّم –نال – أنعم–– تولّي)

– ومن المضارع : (يبات–– تجرب –تختبر – يقام– لم ينل)

ثالثا: أفعال المعنويات: اللفظية والفكرية والنفسية : وتضم من الماضي: (أبي – تأسّف –أمر – أمّل – حلف – خان – – رام – طلب – عاهد –عزم - عوّل – فاته – قال وقيل وقلت – مال – استمال – وشي – أوعد)

– ومن المضارع : (يتحدثون –يستحسن – يخون – يذمّ – تشكر – يظن –يفوق – يقال – يميل – يوصف)

– ومن أفعال الأمر : اعجبوا

رابعا : أفعال الموت والحياة: وضمت فقط الفعلين: (مات – لم يعش)

- على المستوي الصرفي:
- الـــزمن: ورد فـــي الزمن الماضي ستون فعلا، وفي المضارع خمسة عشر فعلا، وفي الأمر فعلان
- المزيد والمجرد: ورد أربعة وخمسون فعلا مجردا ، وثلاثة وعشرون فعلا مزيدا بين مزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة .
- المتعدي واللازم: ورد واحد وخمسون فعلا متعديا ، وستة وعشرون فعلا لازما
- الصحيح والمعتل: ورد واحد وخمسون فعلا صحيحا بين سالم ومضعف ومهموز، وورد ستة وعشرون فعلا معتلا بين معتل الأول والوسط والآخر .
- المبني للمعلوم والمبني للمجهول: ورد في الفقرة واحد وسبعون فعلا مبنيا للمعلوم، وستة أفعال فقط مبنية للمجهول .

وفيما يلي نتناول أنماط الأفعال الواردة في أحوالها الصرفية المختلفة، مع مراعاة عدم التكرار إلا في حالة الفعل الواحد الذي وردت منه عدة أشكال :د.

٥- الفعل الماضي الثلاثي المجرد الصحيح السالم المتعدي لمفعول واحد: وقد ورد في هذا النمط: (بلغ – ترك – جمع – حلف – دفن ودفن (مبني للمعلوم ومبني للمجهول) – صنع – طلـــبوا (مـــبني للمجهول) – طلع – عمل – قبض – قتل وقتل (مبني للمعلوم ومبني للمجهول)

أولا: أنماط الفعل الماضي[1]:

١- الفعل الماضي الثلاثي المجرد الصحيح السالم اللازم: (جلس – حضر – عزم – نزل – نفر)
١- الفعل الماضي الثلاثي المجرد الصحيح المضعّف اللازم : (لم يرد)
٣- الفعل الماضي الثلاثي المجرد الصحيح المهموز اللازم : (لم يرد)
٤-الفعـــل الماضـــي الثلاثي المجرد المعتل اللازم: (بات – جري – زال – قام – مات – مال وشي – وقع)
٥- الفعل الماضي الثلاثي المجرد الصحيح المضعّف المتعدي لمفعول واحد: (سلّ)
٦- الفعل الماضي الثلاثي المجرد الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد : (أكل – أمر)
٧- الفعـــل الماضي الثلاثي المجرد المعتل المتعدي لمفعول واحد: (أبي – أتي – خان –رام – فات– قال – نال – وكز[2]

---

(١) نتـــناول فيها أنماط الفعل الماضي مرتبة بداية بالثلاثي اللازم الصحيح بأنواعه (سالم ومضعف ومهمـــوز)، وننـــتقل إلي الثلاثي اللازم المعتل (الأول والوسط والآخر)، ثم ننتقل إلي الماضي الثلاثي المتعدي لمفعول واحد الصحيح بأنواعه ...الخ ،

(٢) استخدم ابن إياس وكز هنا استخداما مجازيا بمعني وخط الشيب شعره أو ضرب الشيب رأسه

٨-الفعل الماضي المزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة الصحيح السالم اللازم : (تأسّف – أنعم)
٩-الفعل الماضي المزيد بحرف أو حرفين أم ثلاثة الصحيح المضعف اللازم :(لا يوجد)
١٠-الفعل الماضي المزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة الصحيح المهموز اللازم: (أمّل)
١١-الفعل الماضي المزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة المعتل اللازم : (أبقي – عوّلوا – توجّه – ولّي)
١٢-الفعل الماضي المزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة الصحيح السالم المتعدي لمفعول واحد– بادر – غسّل – استغنم (وهي صيغة علي غير قياس)[1]– كرّم – كفّن – عاهد – قارب – أنزل)
١٣-الفعل الماضي المزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة الصحيح المضعف المتعدي لمفعول واحد: (لا يوجد)
١٤-الفعـــل الماضي المزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد: (أنشأ)
١٥-الفعـــل الماضـــي المزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة المعتل المتعدي لمفعول واحد : (صلّي – أقاموه – استمال – ودّع – أوعد – تولّي)

ثانيا: أنماط الفعل المضارع:

كان المضارع أقل بكثير من الماضي ، وقد ورد فيه :

١-مضارع الثلاثي الصحيح السالم اللازم : (لا يوجد)
٢- مضارع الثلاثي الصحيح المضعف اللازم : (لا يوجد)
٣- مضارع الثلاثي الصحيح المهموز اللازم : (لا يوجد)
٤ – مضارع الثلاثي المعتل اللازم: (يبات علي غير قياس)[2] – لم يعش – يميل)
٥- مضارع الثلاثي الصحيح السالم المتعدي لمفعول واحد : (تشكر)
٦ – مضارع الثلاثي الصحيح المضعف المتعدي لمفعول واحد أو مفعولين : (تذمّ – يظنّ)[3]
٧- مضارع الثلاثي الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد : (لا يوجد)
٨ – مضارع الثلاثي المعتل المتعدى لمفعول واحد: يشيل (وهو فعل علي غير قياس)[1]– يقال (مبني للمجهول) – يقام (مبني للمجهول) – لم ينل – لم يوصف المبني للمجهول)

---

(١) استخدم ابن اياس (استغنم) والصحيح (اغتنم الفرصة) ، وربما قاسها علي العامية ، أو تصور فيها زيادة المعني لزيادة المبني

(٢) استخدم ابن اياس الفعل (يبات) بطريقة نطق العامة ، وصحته في الفصحي (يبيت) لأن معتل الوسط بالألف ترد ألفه إلي أصلها الواوي أو اليائي عند صياغة المضارع منه

(٣) ورد فعل واحد متعد إلي مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر وهو الفعل (يظن)

٩-مضارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة الصحيح السالم اللازم : (يتحدّثون)
١٠-مضارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة الصحيح المضعّف اللازم : (لا يوجد)
١١-مضارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة الصحيح المهموز اللازم : (لا يوجد)
١٢-مضـــارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة المعتل اللازم : (تفوّق - تتوّجه) ١٣- مضارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة الصحيح السالم المتعدي لمفعول واحد : (تجرّب - تختبر- لم يستحسن - تنتهز)
١٤- مضارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة الصحيح المضعّف المتعدي لمفعول واحد: (لا يوجد)
١٥-مضارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد: (لا يوجد)
١٦-مضارع المزيد بحرف أو اثنين أو ثلاثة المعتل المتعدي لمفعول واحد : (لا يوجد)

ثالثا : فعل الأمر :

لم يرد في فعل الأمر سوي فعلين كانا علي النحو التالي :
١-الأول من المزيد بحرفين الصحيح السالم المتعدي إلي مفعول واحد :(انتهز)
٢-الثاني من الثلاثي الصحيح السالم اللازم : (اعجبوا)

علي مستوي التراكيب :

وبدراسة الأفعال في تراكيب مشهورة أو ما يعرف(بالتعبيرات) وجدنا ما يلي :

١- تراكيب من الفعل اللازم + حرف جر: (تأسف عليه) (أمّل في) (بادر بـــ) (جري من) (طلع إلي) (اعجبوا من) (عزم علي) (عوّلوا عليه) (تفوق علي) (قبض علي) (مال إلي) (أنعم علي) (نفر عنه) (أوعد بـــ) (توجّه إلي)

وقـــد لوحظ أن في التراكيب السابقة ما يلي : في قوله (تأسّف عليه) دلالة خاصة قاســـها علي (حزن عليه) ، أما الاستخدام المعروف في الفصحي فهو (أسفت له) وفي قوله (جـــري من الأحداث أو جري من القتل) فضل ابن إياس هذه الصيغة علي صيغة (جرت الأحداث بكذا) وهي الصيغة الأكثر فصاحة ، وفي قوله (طلع إلي) يستخدم الفعل متعديا بنفسه أو بحرف جر، فهو صحيح ، وقد استخدم ابن إياس الفعل هنا بمعني صعد وهو وارد في الفصـــحي وشائع في استخدام عامة مصر - وفي قوله (نفر عنه) استخدام خاص للتعبير قياسا علي التعبير الآخر المقارب له (انصرف عن) ، أما المشهور في اللغة فهو (نفر من) - وفي قوله (عزم علي) بمعني دعا الناس للطعام ليست في حاجة للتعدية بعلي ، حتي لا تلتبس بـــ (عزم علي) الدالة علي النية علي فعل شيء ما ، وقد دأب عامة مصر علي استخدام هذه الصـــيغة عند قصدهم دعوة شخص علي طعام - وفي استخدامه (تفوق علي) أحد أمرين ؛

---

(١)اســتخدم ابن إياس الفعل (يشيل) بمعني يحمل علي طريقة العامية المصرية، وهذا مخالفا لقياس الكلمـــة في الفصحي ، فالفعل شال يشيل في المعجم العربي يعني (رفع الحيوان ذيله) ، وربما لاحظ العامة الاشتراك في صفة الرفع بينهما

فإذا كان المراد تفوق مضارع فاق فلا حاجة له بالتعدية بعلي ، وإذا كان المراد تفوّق مضارع تفوّق فقد ورد الفعل تنقصه تاء المضارعة ، وفي قوله (أوعدهم بـكل جميل) استخدم الصيغة في مقام (وعدهم بـعطايا) وصحة دلالتها (هدد بالعقوبة) أما بقية التراكيب (أمّل في – بـادر بـــ – زال من – اعجبوا من – عوّل علي – قبض علي – مال إلي – أنعم علي – توجهـوا بـه – تـوجّه إلي) فقد وردت جميعها منضبطة وفي إطار الاستخدام العام للغة مع ملاحظة أن بعض الأفعال الذي ورد عنده متعديا بحرف جر يمكن أن يأتي متعديا بنفسه مثل (بادر وقبض)

٣- تراكيب من الفعل اللازم + الظرف، وقد ورد منها:

(جلسوا ساعة) (حضر عنده) (باتوا عنده) (أقام هناك أياما) (تتوجّه معه) (وشت بينهم) (لم يعش بعده إلا مدة يسيرة) (تميل مع الهوي) (وقع بينهم)، وجميعها صحيحة

٣- تراكيب من الفعل المتعدي إلي مفعول واحد هو اسم بارز، وقد ورد منها:

مـا كـان مفعوله اسما بارزا وورد فيه: (ما أبقي ممكنا) (أكل السماط) (أمر بعض الخاصكية) (رام كيدا) (صلي العشاء) (صنع وليمة) (عمل أسمطة) (استغنم الفرصة) (قارب الخمسين) (قلت عدة مقاطيع) (استمال القلوب) (نال المني) (انتهز الفرصة) (تولّي عدة وظائف) (يخون الأيمان) (يستحسن قتله) (تشكرن امرأ) (يشيل التراب) ، وقد جاءت جميعها صحيحة عدا الفعل (استغنم) الذي صحته (اغتنم) وقد سبقت الإشارة إلي ذلك[1]. والفعل(يشيل) وقد سبقت الإشارة إلي ما فيه من مخالفة دلالية للمعجم[2]، كما إنه استخدم الفعـل (أمر) مرة متعديا إلي مفعول به اسم ظاهر في (أمر بعض الخاصكية) ، واستخدمه في موضع آخر متعديا بحرف جر في قوله (أمر بخنقه)

٤- تراكيب من الفعل المتعدي إلي مفعول واحد هو ضمير بارز متصل وقد ورد منها:

(أقاموه) (أمّله) (أنزلوه) (خانه الدهر) (خنقه) (دفنه)(رماه الدهر)(رماه كيده في نحره) (عاهدتني) (فاته) (قتله)(وكزه الشيب) (تجرّبه) (تختبره) ، (تذمّنه) وقد وردت جميعها صحيحة ، وكان منها التعبيرات المشهورة (رماه الدهر) و(خانه الدهر) (وعاهـده) ، أمـا في قوله (وكزه الشيب) قد يكون قصده (وخطه الشيب) أي غزا الشـيب شـعره ، أو يكون قد قصد الأثر العنيف لظهور الشيب في الرأس وكأنه وكزة أي ضربه ضربة قوية ، وهي صورة مجازية

٥- تراكيب من الفعل المتعدي إلي مفعول واحد هو ضمير مستتر وقد ورد منها

(خـنق) (دفـن) (غسّل) (قتل) (كفّن) (يوصف) وقد لوحظ أن جميعها وردت مع الفعل المبني للمجهول ضميرا مستترا في محل رفع نائب فاعل

---

(١) سبقت الإشارة إليه ص ٢٤

(٢) سبقت الإشارة إليه ص ٢٥

٦- تراكيب من الفعل المتعدي لمفعول أو لمفعولين وهو جملة: ورد في هذا النوع:
(يظن أن العادل يخون) وهو متعدي لمفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، و(حلفت أنك لا تميل مع الهوي) وهو متعدي لمفعول واحد هو مفعول مقول القول أو الحلف

تعقيب :

الذي يتعقب الظواهر السابق رصدها بوصفها عينة ممثلة لكتابة ابن إياس يكتشف ما يلي :

١) اتسمت كتابة ابن إياس في مجملها بنسبة عالية من الصحة والسلامة الصرفية، والتركيبية: فمن مجموع الأسماء الواردة في ثلاث صفحات هي عينة الدراسة ورد مائة وستة وعشرون اسما جامدا ، وأربعة وأربعون اسما مشتقا كان منها سبعة عشر اسما أعجميا تضم اسم ذات واحدا ، ولقبا واحدا، ومصدرا واحدا، ومشتقا واحدا، وكانت بقية الأسماء أعلاما أعجمية بين تركية وفارسية وتترية ، وقد كانت نسبتها جميعها إلي نسبة الأسماء العربية ١٠% ، بينما جاءت نسبة الأسماء العربية ٩٠%

٢)غلبت علي التراكيب الاسمية عند ابن إياس التراكيب المكونة من شقين عربيين ، وقل عنده ما ورد مكونا من شق عربي وشق أعجمي ، وما كان مكونا من شقين أعجميين، وقد اقتصر هذا النوع من التراكيب عنده علي الأعلام وما يصاحبها من ألقاب ، فقد ورد عنده واحد وستون تركيبا اسميا منها ستة وعشرون تركيب إضافة ، وتسعة تراكيب بدل ومبدل منه ، وخمسة تراكيب صفة وموصوف ، وخمسة تراكيب عطف ، وقد كان من بينها ستة عشر تركيبا دخل فيه اسم أو أكثر أعجمي ، كان من بينها ثلاثة تراكيب في الإضافة المضاف فيها عربي والمضاف إليه أعجمي ، وسبعة تراكيب في البدل والمبدل منه ضمت أربعة فيها البدل اسم علم أعجمي والمبدل منه لقب عربي ، والنين كان البدل فيهما لقب عربي والمبدل منه اسم علم أعجمي ، وواحد جاء فيه البدل والمبدل منه أعجميين ، وكان عدد الأعلام المركبة تركيبا مزجيا ستة كانت كلها أعجمية ، وبذلك يكون عدد التراكيب التي ضمت شقا أعجميا أو جاءت كلها أعجمية بنسبة ٢٦،٢% ، بينما كانت نسبة التراكيب العربية ٧٣،٨%

٣) فإذا انتقلنا إلي الأفعال وجدنا أن مجموعها في العينة كان سبعة وسبعين فعلا منها ستون فعلا ماضيا، وخمسة عشر فعلا مضارعا، وفعلي أمر، فكانت نسبة الماضي إلي بقية الأفعال ٧٧،٩% وهي النسبة الطبيعية المناسبة للكتابة التاريخية، وقد جاء عدد الأفعال المتعدّية واحدا وخمسين فعلا بنسبة ٦٦،٢% ، وعدد اللازمة ستة وعشرين فعلا بنسبة ٣٣،٨%، وكانت الأفعال المجردة أربعة وخمسين فعلا بنسبة ٧٠،١% وكانت المزيدة ثلاثة وعشرين فعلا بنسبة ٢٩،٩% ، وكان الصحيح واحدا وخمسين فعلا بنسبة ٦٦،٢%، وعدد المعتل ستة وعشرين فعلا بنسبة ٣٣،٨% ، وكان المبني للمعلوم واحدا وسبعين فعلا بنسبة ٩٢،٢%، والمبني للمجهول ستة أفعال بنسبة ١٧،٨%، وقد وردت صيغ خمسة وسبعين فعلا صحيحة صرفيا ونحويا، وكانت بنسبة ٩٨،٤%، بينما ورد فعلان فقط غير صحيين

صرفيا، وكانت دلالة واحد وخمسين فعلا في إطار الدلالة المعجمية، وكانت بنسبة ٦٦،٢ % ، بينما ورد ستة عشر فعلا في غير ما وضعت له، أو في الاستخدام العامي، وكانت بنسبة ٣٣،٨%

٤) وبالانتقال إلي التراكيب الفعلية التي تكوّن تعبيرات مشهورة ، والتي تتمثل في (فعل لازم + حرف جر) و(فعل لازم + ظرف) و(فعل متعدي إلي مفعول اسم ظاهر) و(فعل متعدي إلي مفعول ضمير بارز متصل) اتضح أن الفعل اللازم الذي يتعدّي بحرف جر قد ورد فيه عشرة أفعال في إطار التعدي الصحيح ، بينما خرجت خمسة أفعال علي هذا الإطار ، وتعدّت بحروف غير معتادة ، ولم تصنع هذه التركيبات دلالات جديدة بعيدة كثيرا عن الدلالات الأولي لها ، مثل (تأسّف عليه) ،التي أعطت دلالة (حزنت له) وجاءت بدلا من صيغة (أسف له) ، و(طلع إلي)التي أعطت دلالة (صعد إلي مكان مرتفع) ، و(تفوق علي) التي أعطت دلالة (تتفوّق علي) ، و (نفر عنه) وأعطت دلالة (انصرف عن) ، أما الأفعال المتعدية بظرف فكانت ثمانية ، وقد وردت جميعها في إطار الدلالة المعتادة

٥) أما عن إحصاء عدد الجمل الفعلية إلي عدد الجمل الاسمية فقد جاء من الجمل سبع وسبعون جملة فعلية ، وجاء من الجمل الاسمية ست وأربعون أغلبها جمل نواسخ ، وقد كانت نسبة الجمل الفعلية ٦٢،٦% ، ونسبة الجمل الاسمية ٤٧،٤% ، وقد كانت النسبة العليا فيها للصحة والسلامة التركيبية النحوية عدا القليل الذي أفرده بالنماذج التالية أذكرها بعد الإحصائية ، حيث كان عدد التراكيب المنحرفة ثمانية عشر تركيبا من مجموع مائة وثلاثة وعشرين تركيبا ، فكانت نسبة الصحيح ٨٣،٤% ، بينما اقتصرت نسبة المنحرف علي ١٤،٦% ، ومن نماذج التراكيب المنحرفة التي سميتها مخالفات :

- (طلع إلي القلعة ليبات عند السلطان ، وكان يبات بالقلعة ليلة الاثنين) وكانت صحته (طلع القلعة ليبيت ... وكان يبيت)
- (أكل السماط مع السلطان) ، بدلا من (أكل من السماط) الأكثر دقة
- (لما طلع علي جاري العادة ، وأكل مع السلطان ، وجلسوا يتحدثون ، فقال له السلطان)، الفاء زائدة دون حاجة إليها
- (يا أمير كبير) جاء بصفة المنادي مردفة له دون تكرار لأداة النداء ، وذلك علي الطريقة التركية في النداء ، فهو يحاكي طريقة السلطان في الخطاب[1]

(١)أمير كبير : اسما لوظيفة أتابك العسكر ، ويأتي بعدها أمير سلاح ثم وظائف أخري / صبح الأعشي / ج ٦/ ص ٢٠٨

- (فلمـــا صلي العشاء مع السلطان أمر بعض الخاصكية بالقبض عليه) عبارة ملبسة لا يعرف منها من الذي أمر بالقبض علي من إلا بتتبع بقية السياق . خاصة في تلك الفترة المرتبكة التي لا يستبعد فيها أحد أن يقبض علي السلطان نفسه ويعين غيره مكانه .
- (فأقاموه من مجلس السلطان) استخدم أقامه من المجلس محل أنهضه .
- (يقام له هناك مواكب تفوق علي موكب السلطان) استخدم (تفوق) مقام (تتفوق) أو جعل (تفوق) متعدية بحرف جر دون حاجة له .
- (عزم علي سائر الأمراء) وفيه استخدم الفعل بطريقة العوام وصحته أن يتعدي بنفسه إذا كانـــت دلالته (دعا الناس لوليمة) ، لأن (عزم علي) دلالته (نوي أو قصد أن يفعل شيئا) .
- (أوعـــد العســـكر بكـــل جميل) استخدم أوعد بمعني وعد ، والوعد يكون بالخير ، والوعيد يكون إنذار بالشر أو العقاب
- (فلما بلّغ العادل ذلك المجلس استغنم الفرصة ، وبادر بالقبض عليه) ، وكان قد قصد أنـــه لمـــا بلغت العادل أخبار هذا المجلس اغتنم الفرصة ، فجاء بكلمة المجلس مباشرة ،وجاء بالفعل (استغنم) بوزن استفعل ، وصوابها (اغتنم) بوزن (افتعل)
- (كان عفيفا عن المنكرات) قاس الصفة المشبهة عفيفا علي فعلها اللازم (عف عن) وهـــذا الـــنوع من القياس كان سائدا عند ابن إياس ، فأصاب في بعضها ، وأخطأ في الأخري
- (كان قصروه سببا لنصرته) وصوابها (سببا في نصرته).
- (ما أبقي ممكنا في نصرة العادل) هو تعبير مربك قصد به (أن قصروه لم يدخر وسعا في نصرة العادل)
- (ومـــات وقـــد قارب الخمسين سنة من العمر ووكزه الشيب) وكان يكفي القول (قارب الخمسين) ، وجاء بـــ (وكزه الشيب) ملبسة ، فهل قصد بها أن الشيب غزا شـــعره فكأنه وكزة أي ضرب رأسه (فهي صورة مجازية) ، أم أنه قصد (وخطه الشيب) فأخطأ التعبير؟!
- (فنفـــرت عنه قلوب الرعية) وصوابها (نفرت منه) لكنه استخدم (نفر عن) بدلالة(انصرف عن)
- (ولكـــن كان العادل باغيا علي قصروه ، ووشت بينهما الأعادي بالكلام ، حتي وقع بينهما وجري ما جري من القتل) لكي يأتي بالطباق بين العادل وباغيا ، صنع تركيبة مضطربة من لكن مع كان ، وعطف جملة السبب علي جملة النتيجة ، والأفضل (لكن العـــادل كان باغيا علي قصروه ، لأن الأعادي قد وشوا بالكلام ، و أوقعوا بينهما حتي قتل العادل قصروه) .

- وكان من التراكيب التي تكلفها ابن إياس في شعره الذي أورده في الفقرة المستشهد بها ، ولم تصل إلي حد الخطأ ، لكنها جاءت متكلفة :
- (كان قصروه قصيرا عمره) ليجمع بين قصير وقصروه في جناس
- (ثم ما سلّم حتي ودّع) ليصنع مقابلة بين سلّم وودّع
- (رام كيدا للمليك عادل فرماه كيده في نحره) ليصنع جناسا ناقصا بين رام ورمي

الفصل الثاني
نموذج من الكتابات اللغوية الممثلة لنهاية القرن العاشر الهجري

كـــان (كتاب دفع الإصر عن لغة أهل مصر) ليوسف المغربي ت ١٠١٦هـــ من أهم الـــنماذج اللغـــوية الممثلة للغة نهاية القرن العاشر الهجري وبداية القرن الحادي عشر، والذي يدخل بنا في دائرة زمن الحكم العثماني، ووضع اللغة العربية في هذا الزمن، ورغم أن الكتاب يتناول المستوي اللهجي للغة أهل مصر، ففيه مقارنة جيدة بين هذا المستوي ومستوي الفصحي في عـــدد مـــن المعاجم التي رجع إليها المؤلف، وقارن بين ألفاظ اللهجة المصرية التي سجلها، وفصحي العربية ، بل ضم مقارنات مع التركية ، والفارسية وغيرها، وفيما يلي نقدم للمؤلف والكتاب :

يوسف المغربي : (ت ١٠١٩ هـــ – ١٦١١م) بقلم من ترجموا له :

يعـــرفه الزركلي بقوله : هو يوسف بن زكريا المغربي نزيل مصر : أديب وشاعر نشأ وتـــأدب بمصر ، وبها توفي ، أسهب (الخفاجي) في الثناء عليه ، وأورد نتفا من شعره ، وفيه نكـــات بديعية ، ثم قال : واعلم أن هذا كل شعر أكثر فيه من البديع ، قالوا : أول من ألتف الشـــعر العـــربي بهذا النمط مسلم بن الوليد ثم تبعه أبو تمام ، وأحسن هذه الصنعة التجنيس والتورية ، وهما في الشعر كالزعفران قليلة مفرح ، كثيره قاتل ، ولذا لم نجد في أهل مصر من يعرف الشعر ولا ينظمه (كذا) ، ومنهم من غلط في ذلك ، فأكثر من اللغة الغريبة ، وتوهم أنه بذلك يصير بليغا ، علي أن باب التورية قفله ابن نباتة والقيراطي ، ثم رمبا المفتاح في تلك الناحية ، وهذا لا يعرفه إلا من له سليقة عربية ، انتهي ، وللمغربي ديوان شعر سماه (الذهب المصفي) ، ورسالة (رفع الإصر عن كلام أهل مصر –خ) في العامية المصرية ، وبغية الأريب وغنـــية الأديـــب – خ) و(تخميس لامية ابن الوردي) –خ) ، و(مذهبات الحزن في الماء والخضرة والوجه الحسن – خ)[1]

و في مقدمة مخطوطة كتاب (رفع الإصر عن كلام أهل مصر) التي نشرها وقدم لها د. عبد السلام أحمد عواد بموسكو ١٩٦٨ م يقول د. عبد السلام في مقدمته:

(مـــن واجـــبي وأنا أقدم مخطوطة (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) للشيخ يوسف المغربي (وهي المخطوطة الفريدة في العالم ، وإحدي الفرائد الثمينة التي تذخر بها مكتبة الكلية الشرقية بجامعة لينينجراد ، أن أعرّف بمؤلفها ، وهو الذي ضنت المراجع بذكر شيء ذي قيمة عـــن حياته ، أو عن بيئته ، وسأبدأ بذكر ما عرفته عن ترجماته . لعل أول من ذكر المغربي هو شـــهاب الـــدين أحمد الخفاجي (ت ١٠٦٩هـــ –١٦٥٩م) في كتابيه: ريحانة الألبا، وخبايا الزوايا، وفيهما ذكر الخفاجي ليوسف المغربي ترجمة مطولة لكنها لا يوجد فيها إلا نثر منمق، لا يستفاد منه إلا أن المغربي كان صديقا له، وأنه يكبره قليلا، وأنه كان أديبا شاعرا، وله علي حد

(١)الزركلي / الأعلام / ط ١٦/ ج ٨/ ص ٢٣١و٢٣٢

تعبيره (مورد من الأدب المصفي) وديوان سماه (الذهب اليوسفي) ذكر نماذج منه، كما ذكر أيضا صورة خطاب وجهه الشيخ يحي الأصيلي إلي المغربي مخمسا بيتين من الشعر له، ومادحا إياه، وتضمنت ترجمة المغربي في خبايا الزوايا رسالة بعث بها المغربي للخفاجي في صورة سؤال أدبي، رد عليها الخفاجي، غير أن الخفاجي لم يحدد تاريخ وفاته – شأنه في كل من ترجم لهم (الشهاب الخفاجي / ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا / ص ٢٣٥-٢٣٨/ مطبعة بولاق ١٢٧٤هـ، وخبايا الزوايا / مخطوطة بمعهد الشعوب الآسيوية بلينينجراد (B٤) ص ١٣٤أ)

ثم كان حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ – ١٦٥٧م) فأثبت للمغربي ما نقله عن المغربي محرفا فقال : (الذهب اليوسفي والمورد العذب الصفي) ديوان شعر ليوسف المغربي ابن الحربي المصري ذكره الشهاب (كشف الظنون / ج٣/ ص٣٣٧ / رقم ٥٨٣٤/ نشر فلوجل ليبسك و لندن ١٨٣٥-١٨٥٨م) .

وجاء المحبيّ (ت ١١١١هـ – ١٦٩٩م) فنقل ما أورده الخفاجي في كتابيه السابقين ، ثم أضاف إلي ذلك ما علمه من خبر أساتذته ، وأرخ وفاته بالثامن عشر من ذي القعدة سنة ١٠١٩ هـ ، ولكنه وصفه بأنه نزيل مصر (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر / ٤: ٥٠١-٥٠٤/ المطبعة الوهبية / مصر ١٢٨٤هـ).

أما بروكلمان فإنه ذكر ما عرفه عن المغربي ومؤلفاته الموجودة في أوربا وفي الاتحاد السوفيتي معتمدا علي الكتب والفهارس المصنفة ، وذكر تاريخ وفاته صحيحا بالتقويم العربي وهو ١٠١٩هـ ، وغير صحيح بالتقويم الميلادي إذ هو عنده سنة ١٦٠٩م.

أما كراتشكوفسكي فإنه درس المغربي من خلال كتابه (دفع الإصر) هذا ، وأشار إلي المراجع السابقة مقارنا إياها بما جاء في المخطوطة ، فأضاف إلي ترجمته ما وجده من خبره وآثاره التي في مخطوطته ، ولعل أول من ألقي ضوءا ساطعا علي المغربي كان كراتشكوفسكي في بحثه الذي نشره سنة ١٩٢٦ م بعنوان (يوسف المغربي وقاموسه) الذي طبعه في بحث مستقل .

ولم يخرج الزركلي في الأعلام ، والبغدادي في هدية العارفين ، وعمر كحالة في معجم المؤلفين في تراجمهم الموجزة عما سبق ، كما أنهم جميعا لم يشيروا إلي بحث كراتشكوفسكي عند ذكر المراجع التي يرجع إليها للمترجم له[1].

يوسف المغربي في ترجمته لنفسه :

ولد يوسف أبو المحاسن جمال الدين بن زكريا بن حرب المغربي المصري الأزهري في أواخر العقد السابع أو أول العقد الثامن من القرن العاشر الهجري ، وهذا يوافق العقد السابع من القرن السادس عشر الميلادي تقريبا ، وقد ذكر المغربي أنه استمع إلي الشيخ ابن الغيطي ، ولكن ما ذكره يدل علي أنه كان غلاما فوق العاشرة بقليل ، وابن الغيطي (ت ٩٨١هـ –

(١) يوسف المغربي / دفع الإصر عن كلام أهل مصر / حققها وقدم لها د. عبد السلام أحمد عواد / ص ٥ و٦/ سلسلة آثار الآداب الشرقية / دار النشر (العلم) / موسكو ١٩٦٨

١٥٧٣م) ، كما فهم من ترجمة الخفاجي للمغربي أن المغربي كان أكبر منه سنا ، كما يفهم من رسالة المغربي له أن التفاوت بينهما ليس كبيرا ، والخفاجي ولد ٩٧٩ هـ-١٠٧١م ، وقد ولد المغربي بالقاهرة كما ذكر المغربي في مخطوطة (دفع الإصر) ومخطوطة (بغية الأريب وغنية الأديب) في قوله :

قاله الفقير المغربي نسبا الأزهري موطنا وطلبا

فهو يشير إلى أنه ينحدر من أصل مغربي ، وأنه أزهري التعليم .

أساتذته :

أساتذة قليلون هم الذي كان لهم عميق الأثر في حياته ، من هؤلاء من تلقى عنهم فقه المالكية كالشيخ محمد بن أحمد الفيطي الذي سبقت الإشارة إليه ، والشيخ سالم بن محمد عز الدين ابن النجا السنهوري (ت ١٠١٥هـ - ١٦٠٦م) ، أما الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري فهو من أعظم الأساتذة أثرا في حياة المغربي ، لقد كان فقيها أديبا ، صوفيا شاعرا (ت ٩٩٤هـ - ١٥٨٦م) ، والبيت البكري من أقدم البيوت بمصر ، وينتسب إلى أول خليفة للمسلمين (أبو بكر الصديق) ، وظل منذ إنشائه يتوارثه عالم عن عالم ، وعابد عن عابد ، ولقد فاق الشيخ محمد هذا كل من سبقه من أسلافه ، فلقد جعل من بيته محفلا للأدباء ، ومنتدى للعلماء، وملاذا للفقراء ، ومنبع الفيض للمتصوفين ، ومأوى للسامرين ، وكان الشيخ يشارك الجميع ، ويضفي عليهم من علمه وبره وخيره ، وفي هذا البيت وبفضل صاحبه تعرّف المغربي علي شيخ مشهور هو نور الدين علي بن محمد العسيلي (ت ٩٩٤هـ-١٥٨٥ م) الذي وصفه الخفاجي بأنه قبلة وفود الفضلاء ، كما تعرف علي صفيه وخليفته في العلم (الشيخ يحي بن محمد الأصيلي)(ت١٠١٠هـ - ١٦٠١م)

علي يد هذا الشيخ تتلمذ المغربي وتخرج ، كذلك تتلمذ المغربي لاثنين من أبناء الشيخ البكري هما الشيخ زين الدين العابدي البكري (ت١٠١٣هـ -١٦٠٤م) ، والشيخ أبو المواهب البكري (ت ١٠٣٧هـ -١٦٢٨م)، ومن أساتذته أيضا الشيخ علي بن غانم المقدسي (ت ١٠٠٤ هـ - ١٥٩٦م) ، وقد عرض عليه المغربي ما نظمه من (درة الغواص) للحريري ، فتناوله بالتعليق ، وعرض عليه كذلك مؤلفه المنظوم ، وهو (مذهبات الخزن في الماء والخضرة والوجه الحسن) فأثني عليه كثيرا، وأعطاه مكافأة مالية، ومن أساتذته أيضا الشيخ محمد بن يحي الملقب بدر الدين القرافي الغوي الشاعر الأديب (ت ١٠٠٨هـ -١٦٠٠م) .

هؤلاء هم أبرز شيوخ المغربي ، وأبعدهم أثرا في تلوين شخصيته، وهم يمثلون أساتذة الفقه المالكي واللغة والأدب والتصوف، ومنهم من أضاف إلي ذلك مرح الحياة وبهجتها، وهناك غيرهم، ذكرهم المغربي اعترافا بفضلهم، وللبيت البكري وللأزهر الفضل فيما تحصل للمغربي من معرفة باللهجات العربية المختلفة، وقد اتسعت دائرة ثقافة المغربي بالكتب التي كان ينسخها، وتوجت ثقافته باللغات التي كان يعرفها، فقد كان يجيد اللغة التركية ونري ذلك من ارتجاله شعرا بها، أما معرفته اللغة الفارسية فقد ذكر لها أدلة كثيرة في كتابه (دفع الإصر) .

وقد وصف الخفاجي و الأصيلي المغربي بحسن الخلقة والخلق. وربما كان هذا من الأسباب التي وطدت الصلة بينه وبين حكام مصر كالأمير يونس أمير البحيرة، ومصطفي بن بالي متولي القضاء في مصر، وعلوان جلبي وغيرهم، كما كانت صلته حميدة بالبيت البكري، والبيت الوفائي، أما خلقه العلمي فكان ساميا، ذلك أنه كان ينسب كل شيء لصاحبه، ويعرف لنفسه قدرها، في بعض المواطن يعترف بعدم قدرته، وفي أخري يذكر تفوقه وسبقه (توفي بمصر يوم الأربعاء ١٨ من ذي القعدة سنة ١٠١٩هـ الموافق ٢من فبراير سنة ١٦١١م)[1]

مخطوطة (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) :

بدأ المؤلف كتابتها في الثامن أو التاسع من شوال ١٠١٤هـ / فبراير ١٦٠٦م ، وانتهي في منتصف جمادي الأولي ١٠١٥هـ سبتمبر ١٦٠٦وبقيت عنده ، وسجل فيها حادثة ١٠١٦هـ ، انتقلت المخطوطة بعد ذلك إلي البيت البكري ، حيث قام باختصارها محمد بن أبي السرور الصديقي الشافعي (ت ١٠٨٧هـ) ، ثم وجدت المخطوطة بعد ذلك عند يوسف الملوي الشهير بابن الوكيل ، الذي نسخ مختصر ابن أبي السرور ، وانتقلت بعد ذلك إلي يد الشيخ محمد عياد طنطاوي المعلم الأول للغة العربية في روسيا ، وبعد موته (١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م) دخلت في حوزة الكلية الشرقية بجامعة بترسبورج – لينينجراد – ، وفي ١٨٧٠م التفت (روزن) إليها وأرسل بشأنها لمستشرق (توربكه) الذي كان مهتما بدراسة اللهجات العربية ، وقام توربكه بنسخ المخطوطة ولم يقم بعد ذلك ببحثها ، ثم كان المجمعي (كراتشوفسكي) الذي كتب بحثه القيم عنها ونشر ١٩٢٦م ، وأعيد نشره ١٩٥٥ في الجزء الأول من مجموعته المختارة ، وكان د. عبد السلام عواد قد قدم بحثا عن هذه المخطوطة ١٩٥٤م إلي المجلس العلمي بالكلية الشرقية بجامعة لينجراد فأجازه عليه بدرجة الكانديدات في العلوم اللغوية .

كان المغربي قد جعل أولا لكتابه عنوان (الفضل العام وقاموس العوام) وصار يكتبه كاملا أو مختصرا علي أول كل كراسة ، ثم بدله بعنوان آخر هو (دفع الإصر عن لغات أهل مصر) ، ثم جعله (دفع الإصر عن لغة أهل مصر) ، وأخيرا جعل العنوان (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) ، وهناك عنوان آخر ذكره ابن أبي السرور هو (رفع الإصر عن كلام أهل مصر) ، وعنه أخذ بروكلمان .

ذكر المؤلف سبب تأليفه الكتاب مرات متعددة بعبارات متشابهة ، وذلك هو : دفع ما يوجه إلي العامية المصرية من نقد ، وإثبات أن ما ينطقه أهل مصر صحيح عربية أو قريب من الصواب . وهناك سبب مباشر أشار إليه المؤلف وهو : (أن بعض المتشدقين سمع من بعض الأصحاب ألفاظا فصار يهزأ به – مع أنها تحتمل الصواب ، فأراد المغربي أن يدافع عن صديقه ، ممثلا لبني وطنه ، وأن يقطع ألسنة المتشدقين الساخرين ، فرجع إلي أقرب المعجمات إليه ، وهو

(١)المصدر السابق / ص ٧ ١٠

(القامـــوس) للفيروزابادي ، وأخذ يعد ذلك الدفاع الذي حمل به راية الدعوة إلي الزود عن العامية المصرية لأنها عربية ، ولا يبعدها عن أصلها إلا تحريف لا يذهب بعروبتها ، ولا يخرج بها إلي دائرة السوقية والابتذال)[1]

تعقيب:

رغم أن مخطوطة (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) قد تم تأليفها في النصف الأول من العقـــد الـــثاني من القرن الحادي عشر الهجري (١٠١٥هـــ) إلا أن المؤلف نفسه من حيث تكوينه العلمي يعد نتاجا للقرن العاشر الهجري لأنه ولد وتكون خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العاشر الهجري ، وهي الفترة التي عاصر فيها نهاية حكم السلطان العثماني (سليمان القانوني) ، ثم فترة حكم ابنه (السلطان سليم شاه الثاني) من ٩٧٤ : ٩٨٢ هـــ ، تلتها فترة حكـــم ابنه (مراد) من ٩٨٢: ١٠٠٣هـــ ، وقد ضم جيله نخبة من العلماء والأدباء ،-كان منهم من اللغويين : أبو بكر الشنواني (ت١٠١٩) ، وشهاب الدين الخفاجي الذي تعلم علي عمـــه الشنواني السابق الذكر ، وهو صاحب أشهر الكتب (ريحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا) و(طراز المجالس) و(شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل) و(شرح درة الغواص) ...الخ ، ومن مؤرخي ومترجمي جيله : محمد بن عبد المعطي الإسحاقي المنوفي (١٠٣٢هـــ) ، شمس الدين بن أبي السرور البكري الصديقي (١٠٦٠هـــ) ومن أشهر كتبه (التحفة البهية في تملـــك آل عثمان الديار المصرية) و(الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة) ...الخ ، وابـــراهيم بن أبي بكر الصالحي العوفي (١٠٧١هـــ) ، وعبد القادر الفيومي العوفي (١٠٧١ هـــ) ، ومـــن الفقهاء : علي بن محمد بن علي بن غانم المقدسي الخزرجي نور الدين في فقه الحنفية (ت ١٠٠٤) ، وبرهان الدين اللقاني المالكي (١٠٤١هـــ) ، وعبد الله بن بهاء الدين الشنشوري الشافعي (٩٩٩هـــ) ، ومن أعلام العلوم المختلفة مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمـــي زين الدين المقدسي المعروف بالشيخ مرعي (١٠٣٣هـــ) ومن أهم كتبه (قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن)

كمـــا كان من أدباء عصره زين الدين الحميدي (ت ١٠٠٥هـــ) الذي كان طبيبا وأديبا في آن واحد له ديوان (الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم) ، ويشير جورجي زيدان إلي أن بعـــض الـــولاة العثمانيين – وخاصة في الفترة المعاصرة للمغربي كان فيهم ميل للعلم والعلمـــاء ، وكان أشهرهم (اسكندر باشا الشركسي تولي ٩٧٦هـــ) ، وبعده (حسين باشا تولي ٩٨٠هـــ) ، وكذلك (محمد باشا الصوفي) وبعدهم (جعفر باشا ، وبيرم باشا) وكلهم كانـــوا ينفقون علي العلم والكتب مبالغ طائلة ، وبذلك ظلت آداب اللغة العربية حية ، وإن كانت قد انحصرت في كتب الفقه والدين ، أو جمع الأدب والشعر ، حتي أشعارهم جاء أكثرها

---

(١)المصدر السابق / ص ١٠ : ١٣

في مدح النبي ، وكان أكثر المؤلفات الفقهية شروحا وحواش ، وظل الأزهر في تلك الحقبة نور العلم ، وله فضل كبير في استيفاء أصول العلوم[1].

وبعد أن أفضت في المقدمة ليوسف المغربي وعصره أقصد الآن قصدا إلي عينة من كتابه (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) بغرض الوقوف علي لغته بوصفها ممثلة للغة أديب ولغوي ينتسب إلي نهاية القرن العاشر الهجري وبداية القرن الحادي عشر ، وفيما يلي نورد هذا النص:

النص الثاني من مخطوطة (دفع الإصر عن كلام أهل مصر)

(فصـــل الشين) : يقولون كبيرة شارف ، وهو لغوي قال الشارف من السهام العتيق القديم ، ومن النوق المسنة الهرمة كالشارفة ، شرف ككرم مشروفا جمعه شوارف وشرف ككتب وركّع وعـــدول ، وفي الحديث أتتكلم الشرف الجون بضمتين أي الفتن المظلمة، ويروي بالقاف أي الفـــتن الطالعة انتهي .فإن قلت علّ هذه الرواية ما تكون معني الجون فالجواب أنها البيض أي الظاهرة لا تلتبس ، فإن الجون يطلق علي الأبيض والأسود. ويقولون لعلامة الشريف شطفة ، وليس لها في اللغة أصل ، وأما شطف الثوب غسله فلغوية ، قال شطف ذهب وتباعد وغسل ، وهـــذه سوادية ونية شطوف بعيدة ، ورمية شاطفة زلت عن المقتل ، شطنوف كحلزون بلدة بمصر . ويقولون فلان مشغوف ، وفي اللغة المشغوف المجنون ، وشغفها حبا مثل شعفها بالمهملة أي بلغ الحب شغاف قلبها وشعافه عند معلق نياطه وقري بالوجهين .

ويقولون قلبي يشفشف عليه ، ويقع كثيرا من النساء ، وهو صحيح ، قال المشفشف بالفـــتح والكســـر النحيف السيئ الخلق ، ومن به رعدة واختلاط غيرة وإشفاقا علي حرمه . ويقولون في الشفه شفّة فيكسرون الأول ويشددون فاءها ، والشفه بفتح وتخفيف جمعها شفاه مـــثل سنه إلا أن سنه تجمع علي سنين ملحقة بجمع المذكر السالم بخلاف شفه ، ولم أنظرها في القاموس فانظر لماذا .

ويقولـــون شـــقفة ، والشوام يستعملونها بمعني القطعة ، والذي في القاموس الشقف محركة الخزف أو مكسرة فلم يبين المفرد ، وليس فيه معني القطع.

ويقولـــون شـــقدف علـــي الهودج ، قال الشقدف مركب معروف بالحجاز ، وأما الشـــقنداف فليس من كلامهم انتهي . وفي ذكري أن في شرح البسملة نصّوا علي أن زيادة اللفظ تدل علي زيادة المعني ، واستدل بالشقندف وهو صغير بالنسبة إلي الشقنداف فلينظر .

ويقولـــون عـــند السماع شنفتم المسامع فلو مشي معهم أحد في تشنيف المسامع لما شنّفوا المسامع ، ومعني ذلك أن الشنف بالكسر وسكون النون والضم لحن هو القرط للأذن ، وشنف الجارية فتشنفت جعل لها شنفا مثل قرّطها القرط فتقرطت ، فكأن المسمع بحسن سماعه ألقي في المسامع شنوفا وجواهر فصح قولهم شنفتم المسامع بخلاف قولهم شنف الفنجان مثلا أي املاه إذ لا مناسبة بين الامتلاء والتشنيف .

---

(١)جرجي زيدان / مصر العثمانية / ص ١٨١ : ٢٠٢

ويقـــال شاف النبي أي نظره ، والشوف لغوي قال في القاموس شفته شوفا جلوته ، ودينار مشوف مجلو انتهي .

والشـــيّف ككيّس والشيفان[1] الطليعة التي تشتاف لهم ، وتشوّف تزيّن ، وإلي الخبر تطلع، ونظر وأشرف .

ويقولون لدوا العين شيافة ، والذي في القاموس شياف ككتاب أدوية العين ونحوها ، وشيّف الدوا جعله شيافا انتهي . ولم يبين مفرده

ويقولون فلان أشتاف من فلان أو مشتاف منه إذا كان خايفا وله نسبة ، قال أشاف عليه أشرف ومنه خاف فالخايف من الشيء لا يقطع النظر عنه فهو شياف إليه .

فصل الصاد: يقولون مثلا الفاتحة في صحايف فلان، وهي جمع صحيفة بمعني الكتاب، وصحف ككتب، قال في القاموس نادرة لأن فعيلة لا تجمع علي فعل فمعني الفاتحة في صحايفه أي تثبت في كتب حسناته، وقول القاموس نادر لا ينافيه وجود الصحف في القرآن كثيرا فإنه شاذ قياسا لا سماعا ، ويقولون مصحف تارة بفتح الميم وتارة بالضم أي جعلت فيه الصحف والتصحيف الخطأ في الصحيفة ، والصحفي محركة من يخطئ في قراءتها فانظر تخصيصه التصحيف ظاهرة إذا أخطأ إنسان في كلمة قرأها من غير صحيفة لا يقال أنه صحفها علي هذا.

ويقولـــون فـــلان يصدف أي ينظر ، وصدفته ابن الأول ما صدفته ، والثاني قال في المختصر صدفة وجده ، وصدف عنه أعرض ، وبابه ضرب وجلس ، وتذكرت الدوبيت المشهور

العاذل عن أي محياك صـــــــــدف
والجوهر مع در ثناياك صـــــــدف
والمسكر من لمـــــــــــاك من يرشفه
قد صادفه السرور والبسط صدف

واعلـــم أن الصدف محركة غشاء اللؤلؤ الدر الواحدة الصدفة جمعه أصداف ، وكل شيء مرتفع من حائط ونحوه، والصدفان في قوله تعالي (حتي إذا ساوي بين الصدفين) فيهما أربـــع لغات صدف كجبل وعنق وصرد وعضد ، وهو منقطع الجبل أو ناحيته ، وقري بهن ، قال في القاموس: والصدفان هنا جبلان متلازقان بيننا وبين يأجوج انتهي . ولم يقل ومأجوج ، وأمـــا قوله والبسط صدف ، وقول الناس كانت صدفة يريدون أنها نادرة فلم يظهر هذا المعني في القاموس ولا من غيره مما في يدي الآن فانظر .

ويقولون علي حجارة تخرج من الجير صرفان ، وما رأيت لها نسبة إلا ما في المختصر ، قال الصرفان بالتحريك الرصاص ، وجنس من التمر ، والصرفان ثقيل كالرصاص غاية ما فيه أنهم حرفوا .

---

(١) لم يتضح ما إذا كان شيفان جمع شيّف ، ولم يبرر سر ورود هذا الجمع

ويقولـــون صرّاف وصيرفي وكلاهما صحيح ، قال الصيرفي المحتال في الأمور كالصرفي وصرّاف الدراهم جمعه صيارفة والهاء للنسبة ، وقد جاء في الشعر صياريف .

ويقولـــون فـــلان من صفيّ مثلا أي من حزبي ، والصف واحد الصفوف ، والمصف الموضـــع الذي به الصفوف ، وفي الحديث : يؤكل ما دفّ لا ما صفّ أي ما حرك جناحيه من الطير كالحمام لا ما صف كالنسور .

ويقولـــون صفصـــاف مال وهو شجر الخلاف واحدته بها ، والصفصف المستوي من الأرض ، قال تعالي (قاعا صفصفا) وكهدهد العصفور ، وصفصفته صوته ، وصفصف رعي الصفصاف ، ولم يضبط الصفصاف بكسر الصاد أو فتحها ، وقد خطر لي هنا تثليث يا سايرا بالصفصف لمن سباني صفصف وللأواني صف صف

علّ الحبيب يري

ويقولـــون نظيف صليف لم اعلم معني يناسبه فإن صليف كأمير عرض العنق ، وهما صـــليفان ، إلا أن يـــتكلف بأن صفحة العنق دائما نظيفة فكأنه يشبه النظيف بها ، أو نقول صـــليف تبع لنظيف لا معني له مثل حسن بسن فإن قلت ما معني الصلف الذي يقع في الشعر فالجواب أنه مجاوزة حد الظرف ، ومنه رجل صلف ككتف ، ويطلق الصلف علي عدم حظوة المـــرأة عـــند زوجها فهي صلفة من صلايف وصليفات ، وأصلف ثقلت روحه وقل خيره ، وتصلّف تملّق وتكلّف الصلف .

ويقولـــون عـــنده مـــن صنف كذا فيفتحون الصاد ، ولكن هي لغة فيه ، قال في القاموس وصنّفه تصنيف جعله أصنافا ، والشجر نبت ورقه ، ومن هذا قول ابن قيس الرقيات

سقيا لحلوان ذي الكروم وما صنف من تينه ومن عنبه[1].

التحليل :

يتضح مما سبق أن المغربي قد سار علي درب الفيروز ابادي في تصنيفه للقاموس المحيط وفي تـــرتيبه طبقا لنظام القافية فجاء بالحرف الأخير بابا ، وبالحرف الأول فصلا ، مع مراعاة الحـــرف الأوسط عند الترتيب ، ولذا جاءت المواد الواردة هنا مختومة بالفاء لأنها من (باب الفـــاء) ومبدوءة بالشين لأنها تمثل فصل الشين ، أو مبدوءة بالصاد لأنها تمثل فصل الصاد مع اخـــتلاف الحرف الأوسط ، ومراعاة مجيئه في ترتيبه من الألفبائية ، وقد ذكر المغربي في مقدمة هذا الكتاب أنه رتبه علي حروف الهجاء ترتيب القاموس[2]، وفي موضع آخر من المقدمة قال: (وقصد الفقير يوسف المغربي – أدخله الله في شفاعة النبي العربي

(١) مخطوطة دفع الإصر / من لوحة ٢٦ إلي لوحة ٢٨ / ص ٦٨: ٧٢

(٢) المصدر السابق / لوحة واحد / ص ١٨

– أن يـــرتب هذا الكتاب علي أبهج ترتيب يهذب ما يقع من عوام أهل مصر بأن يرجعه إلي الصواب وهذا هو التعريب مفترفا من القاموس والعباب مبينا لما حكم بخطابه أنه صواب[1] لكن المغربي كان يسمي الباب (حرف كذا) مباشرة دون ذكر كلمة باب ، ويسمي الفصل (فصـــل كذا) ، وقد مزج في النص بين ما نقله بنصه من القاموس ، وبين ما نقله من لغة العامة ، وربط بينها بتعليقاته النثرية أو الشعرية ، كما استعان بشواهد القاموس من القرآن والشـــعر ، وأورد معهـــا شواهده الخاصة ، وقد حرص علي ضبط الكلمات علي طريقة المؤلفات اللغوية القديمة وذلك بضبط نطق الكلمات بقياسها علي كلمات مشهورة بوزنها وضبطها (كقوله بوزن فرح ، أو نصر ...الخ) ، وما تعددت طرق نطقه ذكر أوجه نطقه أيضا بالقياس إلي غيره من الكلمات المشهورة كقوله (فيه أربع لغات : صدف كجبل وعنق وصرد وعضد) ، وأما ما خالف ذلك فقد ذكر موضع المخالفة وعلله ، وذكر ما إذا كان لغـــة معترفا بها بوصفها تعدد نطق أو كونه لهجة عامية مصر كقوله (ويقولون عنده من صـــنف كـــذا فيفتحون) . وبسبب الطبيعة الخاصة لهذا الكتاب فإن المزج الوارد فيه بين الفصحي والعامية والعربية والتركية والفارسية أمر منطقي لأنه قصد قصدا إلي المقارنة بين العامية بما دخلها من لغات أخري وبين الفصحي بغرض إثبات القدر المشترك بين الفصحي والعامية باعتباره القدر الأكبر ، وهو ما يريد إثباته من خلال هذا المؤلف .

فإذا انتقلنا إلي رصد مجموع مفردات المغربي التي استخدمها في هذا النص وجدنا ما يلي:

أولا المفردات :

بلغـــت مفردات هذا النص عينة البحث دون المتكرر والأدوات والحروف والنواسخ ثلاثمائـــة وســـبع وأربعين مفردة كان من بينها مائتان وخمسون اسما ، وسبعة وثمانون فعلا ، فكانت نسبة الأسماء إلي مجموع المفردات ٧٣،٣% ، ونسبة الأفعال ٢٦،٧% . وفيما يلي نتناول هذه المفردات بالتفصيل .

١) الأسماء المفردة :

استخدم المغربي مائة وأربعة وستين اسما جامدا ضمت مائة وتسعة من أسماء الذوات ، وخمســـة وخمســـين مصدرا ، وبلغت المشتقات ستة وثمانين مشتقا ، وقد توزعت هذه الأسماء المفردة علي النحو التالي :

– أسماء الذوات :

ضمت أسماء الذوات المجالات الدلالية التالية :

الإنسان : وضم هذا المجال : (ألفاظ عامة علي الإنسان : إنسان – المرأة – رجل – فلان – الـــناس – نســـاء) – (ألفاظ خاصة بالعلاقات الإنسانية : زوج) – (ألفاظ خاصة بأعضاء جسم الإنسان : أذن – ثنايا – شعاف – شغاف – شفه – شفة – شفاه – صفحة العنق –

(١) المصدر السابق / لوحة ٢ / ص ٢٠

صليف – صليفان – عضد – معلق نياط القلب – العنق – العين – قلب – كتف – محيا – نياط – وجهين – يد .) – (أعلام الأشخاص : ابن قيس الرقيات) (أعلام أجناس وأمم : شوام – ماجوج – يأجوج)

الحيوان: وضم هذا المجال : (ألفاظ خاصة بالطيور وأجزاء جسمها : حمام – جناحيه – صفصف – عصفور– هدهد – نسور) (ألفاظ خاصة بالثدييات : نوق) (ألفاظ خاصة بالكائنات البحرية : حلزون – صدفة – غشاء – لؤلؤ) (ألفاظ خاصة بالحشرات : صرد)

النبات : وضم هذا المجال : (أنواعا من الشجر وأجزائه : تمر – تين – خلاف – شجر – صفصاف – عنب – كروم – ورق)

الطبيعة والأماكن والزمان : وضم هذا المجال: (أسماء الأرض و الجبال والوديان : أرض – جبل – جبلان – صدفان – صفصفا – قاعا) – (أسماء الأحجار والمعادن وثروات الطبيعة: جبر – حجارة – جوهر وجواهر – در – رصاص – صرفان) – (البلدان والأماكن : بلدة – ناحية) – (أعلام البلدان والجبال والمواضع : حجاز – حلوان – شطنوف – مصر) – (ألفاظ خاصة بالزمان : سنة – سنين)

الجمادات : وضم هذا المجال : (أسماء الثياب وأدوات الزينة الخاصة بالإنسان : ثوب – جوهر وجواهر – در – شنف – علامة – قرط) – (أسماء خاصة بالأموال : درهم – دينار) – (أسماء خاصة بأدوات الطعام : أواني – خزف – فنجان) – (أسماء خاصة بالصحف والحروف : الشين – الصاد – صحيفة – صحايف – صحف – القاف – قرآن – قاموس – الميم – النون) –(أسماء خاصة بوسائل المواصلات والركوب : شقدف – شقندف – شقنداف – هودج) – (أسماء خاصة بالأسلحة : سهام) – (الأسماء الخاصة بالألوان : أبيض – بيض – أسود – جون)

المعنويات : وضم هذا المجال : (أصل – أمور – جنس – حزب – خلق – خير – روح – شرف – شعر – شيء – صنف وأصناف – ظرف – فتن – نيّة)

المصادر :

جاءت المصادر علي النحو التالي :

مصادر الثلاثي اللازم وضمت : (كلمات عامة : جد – حسن – حرمة – حظوة – زيادة – سرور – صلف – صوت – نظر– وجود) – (كلمات مصطلحية في اللغة والنحو : سكون – ضم – فتح – كسر – لحن – لغة –)

مصادر الثلاثي المتعدي إلي مفعول واحد : (كلمات عامة : بسط – جمع – حب – خبر – ذكر – شرح – شوف – صفّ – قراءة – قول – لفظ)

اسم المرة واسم الهيئة من الثلاثي وضمت : حسنات(جمع حسنة) رعدة – رمية – شطفة – شقفة – ضمة وضمتين –قطعة – كلمة –)

مصادر غير الثلاثي اللازم وضمت : (كلمات عامة : حديث – اختلاط – إشفاق – امتلاء – كلام)

مصـــادر غـــير الثلاثـــي المتعدي لمفعول واحد وضمت : (كلمات عامة : جواب – تخصـــيص – تشنيف – تصنيف) – (كلمات مصطلحية في اللغة والنحو والشعر : بسملة – تثليث – تخفيف – سماع – تصحيف – قياس)

اسم المرة واسم الهيئة من غير الثلاثي : (رواية – مناسبة)

– المشتقات :

ورد في المشتقات المختلفة خمسة وثمانون لفظا توزعت علي النحو التالي:

الصفة المشبهة وضمت : (بوزن فعيل : أمير – بعيد – ثقيل – حبيب – شريف – صحيح – صغير – صفيّ – صليف – طليعة – عتيق – قديم – كبيرة – نحيف – نظيف) – (بوزن فعل بفتح العين وكسرها : حسن – صلف وصلفة وصلايف وصلفات – هرمة) – (بوزن فعل بفتح الفاء وبسكون العين (شاذ – عدول (جمع عدل) –(بوزن فيعل : كيّس)

اسم الفاعل وضم : (من الثلاثي : ثاني – جارية – حائط – خائف – سائر – سالم – شارف وشارفة – شاطفة – طالعة – ظاهرة – عاذل – فاتحة – نادرة – واحد وواحدة) – (من غير الثلاثي : مجاوز – محتال – مرتفع – مستوي – مسنة – مشفشف – مظلمة – متلازمان)

صـــيغة المبالغة وضمت : (ركّع – شطوف – شيّاف وشيّافة – شيفان – صرّاف – صيرفي وصيارف)

اسم المفعول وضم : (من الثلاثي : مجلوّ – مجنون – مشروف – مشعوف – مشهور –مشوف – معروف) – (من غير الثلاثي : مثلث – محرّكة – مختصر – مذكّر – مشتاف – مصحّف – معنيّ – مفرد – مكسّرة – ملحق – مهملة)

اسم المكان وضم: (مركب – مسمع ومسامع – مصف – مقتل – منقطع – موضع)

أفعل تفضيل وضم : (أول)

الأسماء المنسوبة وضمت : (صحفيّ – لغويّ ولغويّة)

١) الأسماء في تراكيب مشهورة :

كانـــت أبرز التراكيب التي استخدمها المغربي تراكيب تامة (مكونة من مبتدأ وخبر) وتراكيب ناقصة مكونة من (المضاف والمضاف إليه ، وتراكيب الصفة والموصوف ، وتراكيب المعطوف والمعطوف عليه ، وفيما يلي أتناول نماذج لهذين النوعين من التراكيب:

أولا : تراكيب تامة (مبتدأ وخبر) :

وضمت :

١– تراكيب مكونة من (المبتدأ (اسم مفرد) + الخبر (اسم مفرد) مثل : (فلان مشعوف)(المشوف لغوي)

٢- تـراكيب مكونة من (المبتدأ (اسم مفرد) + الخبر (اسم مفرد)+ متعلق بالخبر مثل :(الشقدف مركب معروف) (الشيفان الطليعة التي تشتاف لهم) (المصحف مثلث الميم) (التصحيف الخطأ في الصحيفة) (الصدفان جبلان متلازقان) (الصفّ واحد الصفوف) (المصف الموضع الذي به الصفوف) (الصفصف المستوي من الأرض) (الضم لحن)

٣- تـراكيب مكونة من (المبتدأ (اسم مفرد) + متعلقات كالإضافة والصفة وغيرها) + الخـبر (اسـم مفرد) مثل : (الشارف من السهام العتيق ، ومن النوق المسنّة) (نية شطوف بعيدة)

٤- تراكيب مكونة من (المبتدأ (اسم مفرد) + الخبر (جملة فعلية) مثل : (الجون يطلق علـي الأبـيض والأسود) (سنة تجمع علي سنين) (الشوام يستعملونها بمعني القطعة) (فعيلة لا تجمع علي فعل) (قلبي يشفشف عليه

٥- تراكيب مكونة من (مبتدأ (اسم مفرد) + متعلقات بالمبتدأ+ خبر (جملة فعلية) مثل : (رمية شاطفة زلت عن المقتل) (زيادة اللفظ تدل علي زيادة المعني) (الخايف من الشيء لا يقطع النظر عنه)

٦- تـراكيب مكـّونة من المبتدأ (اسم مفرد) + الخبر (جار ومجرور) : (الشنف بالكسر وسكون النون) (شيّف ككيّس) (شرف ككتب) (صحف ككتب) (صليف كأمير) وقد جاء هذا النمط عنده كثيرا في تشبيه نطق اسم غير مشهور بنطق اسم مشهور ، وهي طريقة الكتب القديمة في توضيح طريقة النطق

ثانيا: تراكيب ناقصة وضمت :

- المضاف والمضاف إليه :

وضم هذا النوع ثمانية عشر تركيبا جاءت علي النحو التالي :

تراكيب خاصة بأجزاء الجسم والحواس مثل : (در الثنايا – حسن السماع و تشنيف المسامع – شغاف القلب – شعاف القلب – معلق نياط القلب)

تراكيب خاصة بالمصطلحات النحوية واللغوية مثل : (جمع المذكر السالم زيادة اللفظ – زيادة المعني – شرح البسملة – مثلث الميم)

تراكيب خاصة بالطبيعة –مثل : (شجر الخلاف – منقطع الجبل)

تراكيب مختلفة مثل (دواء العين – كتب حسناته – صراف الدراهم –علامة الشريف)

- تراكيب الصفة والموصوف :

وضم هذا النوع تسعة تراكيب جاءت علي النحو التالي :

- تراكيب خاصة بصفات في الإنسان مثل : (رجل صلف – نية شطوف)

- تراكيب خاصة بصفات الأشياء مثل : (دينار مشوف – رمية شاطفة – الشرف الجون – الفتن المظلمة – قاعا صفصفا – مركب معروف)

- تراكيب خاصة بالمصطلحات النحوية مثل : (المذكر السالم)

- تراكيب المعطوف والمعطوف عليه :

وضم هذا النوع تركيبين الأول معطوفا بالواو وهو (الأبيض والأسود) ، والثاني معطوفا بلا للإضراب وهو (قياسا لا سماعا)

- تركيب الإتباع :

وضم تركيبين هما (حسن بسن – نظيف صليف)

- تركيب المزج :

وجاء بالمزج بين كلمة عربية وكلمة فارسية في موضع واحد هو : (دو بيت) أي بيتين

٤–الأفعال :

- المعالجة الدلالية :

ورد في القطعة تسعة وثمانون فعلا توزعت من حيث التصنيف الدلالي علي النحو التالي :

- أفعال الحركة : وضمت في الماضي (بلغ – تباعد – جعل –جلوته – جاء – حرّف – حرّك – أخطأ – دفّ –– ذهب – رأي – رعي – زلّ – تزّين – سعي –– ساوي – أشرف – عطف – شنّف – تشنّف – شاف – أشاف – تشيّف – تشوّف – صدفه – صدف عن – صادف – صفّ – صنّف – تطلّع – أعرض – غسل – قرأ وقرئ – تقرّط – ألقي – نبت – نصّوا علي – نظر)

وضمت في المضارع : (يؤكل – يبين – يجمع – يخطي – يخرج – يري – يروي – يستعمل – يشبه – يشفشف – يشتاف – يصدف – يضبط – يطلق علي – يظهر – يفتح – يقطع – ينظر – يقع)، وورد في الأمر : (شنّف – إملاه – انظر)

- أفعال المعنويات لفظية وفكرية وجدانية : وورد منها في الماضي : (ثقلت روحه – خطر لي – خاف – استدلّ – تذكّر – شرف – شعف – شغف –صحّ – أصلف – تصلّف –– تعالي قال وقيل – قلّ خيره – كرم –تكلّف– تملّق – انتهي)

وضمت في المضارع: (تثبت – تجمع علي –تدلّ – يريد – أعلم – يقول – يتكلّف – تتكلّم ينالي)

وورد في الأمر : (اعلم) و (صف)

- علي المستوي الصرفي :

- الزمن :انقسمت مجموعة الأفعال إلي ستة وخمسين فعلا ماضيا ، وثمانية وعشرين فعلا مضارعا ، وخمسة أفعال فقط في صيغة الأمر فكانت نسبة الماضي٦٢،٩% ، ونسبة المضارع ٣١،٣% ، واقتصر الأمر علي نسبة ٥،٨% .

- اللازم والمتعدي: استخدم المغربي في هذه العينة سبعة وأربعين فعلا لازما ، واثنين وأربعين فعلا متعديا ، فكانت نسبة اللازم ٥٢،٨% ، ونسبة المتعدي ٤٧،٢% .

- المزيد والمجرد: ورد في العينة أيضا ستة وأربعون فعلا مجردا، وثلاثة وأربعون فعلا مزيدا بين مزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة فكانت نسبة المجرد٥٢،٧%، ونسبة المزيد٤٧،٣% ،

وقـد مـال المغربي نسبيا إلي المزيد بحرفين أو ثلاثة أحرف فجاء منه أربعة وعشرون فعلا بنسبة ٥٧% ، وكان المزيد بحرف بنسبة ٤٣% .

- الصحيح والمعتل : ورد في العينة ستة وعشرون فعلا معتلا ، وثلاثة وستون فعلا صحيحا ، فكانت نسبة الصحيح هي الأكبر وتمثل ٧٧،٨ % بينما كانت نسبة المعتل٢٢،٢%.
- المـبني للمعلوم والمبني للمجهول: وجاء المبني للمجهول ممثلا في خمسة أفعال اثنان منها في الماضي وثلاثة في المضارع وكانت نسبتها جميعا ٥،٦%.

وفيما يلي نتناول الأفعال بالمعالجة الصرفية التفصيلية :

أولا : الماضي :

الثلاثي :

وقد انقسم إلي :

- ماضـي الثلاثـي الصحيح السالم اللازم: (ثقلت – خطر لي – ذهب – شرف – صدف – كرم – نبت)
- ماضي الثلاثي الصحيح المضعف اللازم : (دفّ – زلّ – صحّ – قلّ – نصّ)
- ماضي الثلاثي الصحيح المهموز اللازم : (لا يوجد)
- ماضي الثلاثي المعتل اللازم: (جاء – خاف)
- ماضي الثلاثي الصحيح السالم المتعدي لمفعول واحد والمتعدي لمفعولين : (بلغ – جعل – شطف – شعف – شغف – صدفه – غسل – نظر)
- ماضي الثلاثي الصحيح المضعف المتعدي لمفعول واحد: (صفّ)
- ماضـي الثلاثي الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد: المبني للمعلوم (قرأ) والمبني للمجهول (قرئ)
- ماضـي الثلاثـي المعتل المتعدي لمفعول واحد : (جلوته – رعي – سباني – شاف وشفت – المبني للمعلوم قال وقلت والمبني للمجهول قيل)

غير الثلاثي :

وقد انقسم إلي :

- ماضي غير الثلاثي الصحيح السالم اللازم: (تباعد – أشرف –أصلف – أعرض)
- ماضي غير الثلاثي الصحيح المضعف اللازم:(استدلّ – تشنّف –صفصف – تصلّف – تطلّع – تقرّط – تكلّف)
- ماضي غير الثلاثي الصحيح المهموزاللازم : (أخطأ)
- ماضي غير الثلاثي المعتل اللازم : (تزيّن – ساوي– تشوّف –تعالي – انتهي)
- ماضي غير الثلاثي الصحيح السالم المتعدي لمفعول أو اثنين أو ثلاثة : (صادف – أعلم)
- ماضي غير الثلاثي الصحيح المضعف المتعدي لمفعول واحد: (حرّفوا –حرّك – تذكّر – شنّف– صنّف – تملّق)

- ماضي غير الثلاثي الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد: (لا يوجد)
- ماضي غير الثلاثي المعتل المتعدي لمفعول واحد : (أضاف — شيّف – ألقي – أملاه)

ثانيا : المضارع:

الثلاثي :

- مضارع الثلاثي الصحيح السالم اللازم: (تخرج – يصدف عن – يطلق علي – يظهر)
- مضارع الثلاثي الصحيح المضعف اللازم: (تدلّ)
- مضارع الثلاثي الصحيح المهموز اللازم : (لا يوجد)
- مضارع الثلاثي المعتل اللازم: (يبين – يقع)
- مضارع الثلاثي الصحيح السالم المتعدي لمفعول واحد: (تثبت – تجمع – يضبط – يفتح – يقطع – ينظر)
- مضارع الثلاثي الصحيح المضعف المتعدي لمفعول واحد: (لا يوجد)
- مضارع الثلاثي الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد: (المبني للمجهول يؤكل)
- مضارع الثلاثي المعتل المتعدي لمفعول واحد : (يروي – يقول والمبني للمجهول يقال)
- مضارع الثلاثي الصحيح السالم المتعدي لمفعولين أصلهما المبتدأ والخبر (أعلم)
- مضارع الثلاثي المعتل المتعدي لمفعولين أصلهما المبتدأ والخبر : (يري)

غير الثلاثي :

- مضارع غير الثلاثي الصحيح السالم اللازم: (تلتبس)
- مضارع غير الثلاثي الصحيح المضعف اللازم: (يشفشف – يتكلّف – تتكلّم)
- مضارع غير الثلاثي الصحيح المهموز اللازم : (يخطئ)
- مضارع غير الثلاثي المعتل اللازم: (تشتاف ويشتاف إليه)
- مضارع غير الثلاثي الصحيح السالم المتعدي لمفعول أو اثنين أو ثلاثة: (يستعمل – يناسب)
- مضارع غير الثلاثي الصحيح المضعف المتعدي لمفعول واحد: (يشبّه)
- مضارع غير الثلاثي الصحيح المهموز المتعدي لمفعول واحد: (لا يوجد)
- مضارع غير الثلاثي المعتل المتعدي لمفعول واحد: (يريدون – ينافيه)

ثالثا : الأمر :

- أمر الثلاثي المتعدي الصحيح السالم : (اعلم – انظر)
- كما ورد الفعل المضارع الثلاثي المتعدي الصحيح السالم (ينظر) وقد دخلت عليه لام الطلب فدلت الصيغة (لينظر) علي الأمر
- أمر الثلاثي المتعدي المعتل : (صف الأمر من وصف)
- أمر غير الثلاثي الصحيح المضعف : (شنّف)
- أمر غير الثلاثي الصحيح المهموز : (املأ)

رابعا : التراكيب الفعلية : وضمت عدا المتكرر سبعة وثمانين تركيبا كان منها :

١) تراكيب اللازم + الفاعل ضمير مستترجوازا + حرف جر :

(جـاء في الشعر — تجمع علي – خطر لي – يخطئ في – استدل بـ –زلت عن – سـاري بـين - اشـتاف منه (خاف منه ومنه خاف) —شاف عليه (أشرف عليه) – يشفشف عليه –اشتاف له و تشوّف إلي الخبر(تطلّع إليه) – صدف عن – يطلق علي – قريء بـ – يقع في – يقع من – نصوا علي)

٢) تراكيب من الفعل اللازم + الفاعل ضمير مستتر جوازا + الظرف :

وضمت : (مشي معهم)

٣) تراكيب من الفعل اللازم + الفاعل ضمير مستتر جوازا + فعل لازم آخر مفسر+ الفاعل ضمير مستتر :

وضـمت: (شرف ككرم)، (شطف ذهب وتباعد)، وقد اعتاد مؤلفو كتب اللغة علي استخدام الكاف في تشبيه نطق فعل أو اسم بنطق فعل أو اسم آخر أكثر شهرة منه، وهو من المواضع النادرة التي تدخل فيها الكاف علي الفعل كما تدخل علي الاسم، وفي هذا تأويل[1]

٤) تراكيب من الفعل اللازم + الفاعل اسم ظاهر(معرب أو مبني) :

وضمت :(ثقلت روحه) (أخطأ إنسان في قرآنا)[2] (صحّ قولهم) (صنف الشجر نبت ورقه)(لم يظهر هذا المعني) (قل خيره) (أتكلّم الشرف الجون)

٥) تـراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد + الفاعل اسم أو ضمير بارز+ مفعول اسم أو ضـمير بـارز: وضـمت : (بلـغ الحب شغاف قلبها) (تذكرّت الدوبيت المشهور)(يسـتعملونها بمعني القطعة) (شفته شوفا جلوته) (شنفتم المسامع) (ما شنفوا المسامع) (صـادفه السرور والبسط صدف) (يفتحون الصاد) (يكسرون الأول ويشددون الثاني) (لا ينافيه وجود الصحف في القرآن)

٦) تراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد + الفاعل ضمير مستتر + مفعول اسم أو ضمير بـارز وضمت :(لم يبيّن المفرد)(ألقي في المسامع شنوفا وجواهر) (يشبّه النظيف بها) (شطف الثوب غسله) (شنّف الفنجان أي املاه) (شاف النبيّ أي نظره)(شيّف الدوا جعله

---

(١) ذكـر ابن هشام (أن الكاف المفردة – جارة وغيرها ، والجارة حرف واسم ، الحرف له خمسة معان ، أما الكاف الاسمية الجارة فمرادفة لمثل) مغني اللبيب / تحقيق محي الدين عبد الحميد / ج١ / ص ١٧٦ : ١٨٠ / مكتـبة صـبيح / القاهرة د.ت – الكاف التي دخلت علي الفعل هنا سـواء أكانت حرفا أو اسما جارا فقد دخلت علي اسم محذوف مقدر بقول فيصبح التقدير (قولك شرف كقولك كرم)

(٢)هكذا وردت في المخطوطة ، وصوابها (قراءتها)

شيافا) (صحّفها) (صدفه وجده) (صفصف رعي الصفصاف)(يناسبه) (لا يقطع النظر عنه) (لم أنظرها) (أنظر تخصيصه التصحيف ظاهرة)(تكلّف الصلف)

٧) تراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد + الفاعل ضميربارز أو مستتر + مفعول به بارز + مفعول مطلق : وضمت : (شفته شوفا) (صنّفه تصنيفا)

٨) تراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد + فاعل ضمير مستتر + مفعول بارز + تمييز : وضمت : (شعفها حبا) (شغفها حبا)

٩) تـــراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد + فاعل ضمير مستتر + مفعول محذوف مقدر وضـــمّت : (تشـــنّفت (لبست شنفا) ـــ صف (الأمر من وصف) ـ تصلّف ـ تقرّطت (لبست قرطا)ـ تحلّق

١٠) تراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد وهو مبني للمجهول + نائب فاعل بارز مغرب أو مـــبني: وضمت: (يؤكل ما دف لا ما صف) (لم يضبط الصفصاف بكسر الصاد أو فتحها) (يطلق الصلف علي عدم حظوة المرأة عند زوجها)

١١) تـــراكيب من الفعل المتعدي لمفعول وهو مبني للمجهول + نائب فاعل ضمير مستتر + متعلق : وضمت : (يروي بالقاف) (قري بالوجهين) (قري بمن)

١٢) تـــراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد + فاعل بارز +جملة في محل نصب المفعول : وضـــمت : (يقولون كبيرة شارف) (قلت علي هذه الرواية ما يكون معني الجون) (يقولـــون فلان مشعوف) (يريدون أنها نادرة) وقد ورد الفعل يقولون ستة عشر مرة في مواضع أخري.

١٣) تـــراكيب مـــن الفعل المتعدي لمفعول واحد + فاعل ضمير مستتر + جملة في محل نصب المفعـــول : وضـــمت : (قال الشارف من السهام العتيق) (قال شطف ذهب وتباعد وغســـل)، (نقـــول صليف تبع لنظيف) وقد ورد الفعل قال اثني عشرة مرة ، وكان الضمير فيها جميعا يعود علي مؤلف القاموس المحيط الذي نقل عنه

١٤) تـــراكيب من الفعل المتعدي لمفعول واحد وهو مبني للمجهول + جملة في محل رفع نائب فاعل : وضمت : (لا يقال أنه صحّفها)

١٥) تـــراكيب من الفعل المتعدي لمفعولين + فاعل مستتر+ جملة مكونة من مبتدأ وخبر تقوم مقـــام المفعـــولين: وضمت: (جعل لها شنفا) (جعله شيافا) (جعلت فيه الصحف) (جعله أصـــناف) (اعلـــم أن الصدف محركة غشا اللولو الدر الواحدة الصدفة) (لم أعلم معني يناسبه)

١٦) تـــراكيب مـــن الفعـــل المتعدي لمفعولين + فاعل مستتر + مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر: وضمت: (شنفها الشنف) أي ألبسها شنفا ، و(قرطها القرط) أي ألبسها قرطا

التطبيق :

الـــذي يتقصي طريقة المغربي في الكتابة يجد أنه قد تمكن من لغته بشكل جيد ، وجاء اعتماده الأساسي علي القاموس المحيط للفيروزابادي عاصما له من الأخطاء ، وإن كان قد جار علي النصيب الأكبر من مخطوطته ، فهو في مقارنته للغة عامة مصر بلغة القاموس باعتبارها ممثلة لفصحي العربية قد أورد عبارات طويلة من القاموس ، وتخللت كلمات القاموس كل عباراته ، فلم تخلص لغته من لغة القاموس إلا فيما يخص وصفه للكلمات العامية التي يسوقها للدراسة ، وشـــعره الخـــاص الذي تخلل كل كتاباته ، كما أنه اعتمد علي الشواهد من الشعر والقرآن الكـــريم والحـــديث الشريف ، وقد كانت كل كتابات القرن العاشر يغلب عليها النقول عن السابقين وكثرة الشواهد ، مما جعل مسألة الفصل بين لغة المؤلف ولغة المنقول عنهم من الأمور الصـــعبة ، وقـــد صـــادفني هذا في قراءة السيوطي في جل كتبه، وفي قراءة العاملي في كتابه الكشـــكول ، وفي قـــراءة غيرهـــم من مؤلفي هذا القرن وقد توسمت في كتابة المغربي بعض الخصوصـــية المتمـــثلة في تـــناوله للغة عامة مصر بالمقارنة ، وبناء علي هذا نستطيع أن نحصر ملاحظاتنا علي لغة المغربي فيما يلي :

أولا : علي المستوي الصوتي والصرفي :

- اســـتخدم المغـــربي في النص عينة البحث ثلاثمائة وتسعة وأربعين مفردة ، كان منها مائتان وخمسون اسما بنسبة٧١،٦ % ، وتسعة وثمانون فعلا بنسبة٢٨،٤% ، وقد جاءت الأسماء ممـــثلة لغالبية المجالات الدلالية الخاصة بالإنسان والحيوان والنبات والطبيعة والجمادوالزمان والمكان والمعنويات ، فكان منها مائة وأربعة وستون من أسماء الجوامد تضم مائة وتسعة اسم ذات وخمسة وخمسين مصدرا (من مصادر الثلاثي والرباعي والخماسي والسداسي) فكانت نسبة الجوامد إلي مجموع الأسماء ٦٥،٥% ، وكان منها ثمانية وستون من المشتقات المختلفة (الصـــفة المشـــبهة – اسم الفاعل – اسم المفعول – صيغة المبالغة – اسم المكان – أفعل التفضيل) ، وكانت بنسبة ٣٤،٥%

أمـــا الأفعال فقد بلغت تسعة وثمانين فعلا كان من بينها واحد وستون فعلا من أفعال الحـــركة، وثمانـــية وعشرون فعلا من أفعال المعنويات، ومن حيث الزمن كانت النسبة الأكبر للماضي الذي بلغ ستة وخمسين فعلا بنسبة ٦٢،٩%، بينما كان المضارع ثمانية وعشرين فعلا بنســـبة ٣١،٤%، وكـــان الأمر خمسة أفعال فقط بنسبة ٥،٧%، وقد تقاربت النسب بين اللازم ٥٢،٨% والمتعدي ٤٧،٢%، وبين المجرد ٥٢،٧% والمزيد ٤٧،٣%، بينما تفاوتت نســـب الصـــحيح والمعتل ؛ فكان الصحيح ثلاثة وستين فعلا بنسبة ٧٧،٨% والمعتل ستة وعشرين فعلا فقط بنسبة ٢٢،٢% ، كما غلبت نسبة المبني للمعلوم الذي بلغ أربعة وسبعين فعلا بنسبة ٩٥،٤% بينما اقتصر المبني للمعلوم علي خمسة أفعال فقط بنسبة ٤،٦%

- وهو يتبع منهج الفيروزابادي في البدء بالأسماء ، ثم الانتقال إلي الأفعال ، عدا بعض المواضع التي تحكم طبيعتها البدء بالفعل ، و يخلط المغربي أحيانا بين الاثنين فيتناول الاسم ثم الفعل

ثم يعود مرة أخري إلي الاسم ، وهناك مواد لا يأتي فيها بالأفعال ، وقد غلبت المادة الاسمية بشكل عام علي مجموع مفرداته كما رأينا في الإحصائية السابقة . وجاءت أغلب الأفعال التي استخدمها في كلمات الربط أكثر مما جاء في المواد المعجمية التي يعالجها ، ومن الأفعال القليلة التي عالجها هنا في فصلي الشين والصاد باب الفاء (شرف – شطف – شعف – شغف – شفشف – شنف – شاف – صحف – صدف – صف– صفصف – صلف – صنف) فكان مجموعها ثلاثة عشر فعلا أي أنها لم تجاوز نسبة ١٤،٦% من تسعة وثمانين فعلا مجموع الأفعال الواردة في النص ، ولم تجاوز نسبة ٣،٧% من ثلاثمائة وثمان وأربعين مفردة مجموع مفردات هذا النص ، وقد راوح المغربي بين الإتيان بمشتقات كل فعل أو مصدره بعده ، وبين ذكر الأفعال دون مشتقاتها ، أو ذكر المشتقات دون أفعالها ، كما جاء بالفعل في حالة المزيد أحيانا دون ذكر مجرده ، وجاء بالفعل المشتق من الاسم الجامد مثل (شنّف من الشنف أي القرط) ، وقد حرص علي توضيح فرق النطق بين الاسم والفعل غالبا كما في (صدف الفعل وصدف جمع صدفة) ، لكن الفرق لم يتضح في بعض الحالات نتيجة اشتراك الفعل والاسم في صيغة نطقية واحدة مثل (صفّ الفعل وصفّ الاسم) ، وقد كان المغربي مغرما بجمع الأسماء والأفعال المتشابهة ليصنع منها أشعاره المملوءة بالجناس والتورية المتكلفة شأن ما شاع في عصره ، وكان خير مثال علي ذلك قوله :

يا سايرا بالصفصف لمن سباني صف صف وللأواني صف صف

– وقد ورد ت كل مفردات المغربي المهموزة سواء أكانت أسماء أم أفعالا دون همز وذلك لأنه يتبع مذهب من يخفف الهمزة ، وعامة أهل مصر أيضا ممن يخففون الهمزة ، وقد ظهر تخفيف الهمزة في الكلمات المهموزة التالية : (فالخايف من الشيء لا يقطع النظر عنه) وقوله (لا مناسبة بين الامتلا والتشنيف) وقوله (فمعني الفاتحة في صحايفه أي تثبت في كتب حسناته وقوله (إذا أخطا إنسان في كلمة قراها من غير صحيفة لا يقال أنه صحفها).

– وردت بعض المفردات واضحة النطق لأن المغربي قد نص علي طريقة نطقها الفصيح أو المطابق للفصيح إما بقياسها إلي صيغة مشهورة كقوله (فيها أربع لغات صدف كجبل وعنق وصرد وعضد) ، أو بذكر علامات البناء وتكملة ما ينقص المستوي العامي عن المستوي الفصيح كما في قوله (ويقولون مصحف تارة بفتح الميم وتارة بضمها ولكن هو مثلث الميم) أو يضع علامة التضعيف الشدة كما في قوله (تشنّفت) و(قرّطها) ، وأحيانا يرسم علامات البناء علي الكلمات ثم يصفها كما في قوله (ويقولون في الّشفة شفّة فيكسرون الأول ويشددون ، وإنما هي الّشفه بالفتح والتخفيف جمعها شفاه) ، وكان أحيانا يصف علامات البناء التي تعد لحنا وانحرافا عن الصحيح كقوله (معني ذلك أن الشنف بالكسر وسكون النون والضم لحن هو القرط للأذن) وبذلك يكون قد ترك للقارئ أن يتصور أن الوجه الثالث وهو الفتح هو الصواب . لكنه في مواضع أخري لم يوضح طريقة النطق الصحيح ، إما لأنه ذكر أحد الوجهين المقارن بينهما دون ذكر الوجه الآخر ، وإما لأن

العبارة جاءت غامضة أو ناقصة ، وذلك لاستطراده في النقل عن المحيط في معظم الأحيان دون التنبه إلي أنه يقارن بين مستويين لغويين ، ولولا قوله (يقولون) – وكان يقصد بها عامة المصريين – ، وقوله (قال) – وكان يقصد بها الفيروزابادي في القاموس المحيط – ، وقوله (هو لغوي) أو(ليس له في اللغة أصل) ما تبين لنا الفرق بين القولين ، وما استبان لنا ما كان متمشيا مع النطق الفصيح ، وما كان مخالفا له ، ولا تعرفنا علي موضع المخالفة وسببه ، و لذلك فقد شاب كثير من عباراته الغموض ففي قوله (يقولون لعلامة الشريف شطفة ، وليس لها في اللغة أصل وأما شطف الثوب فلغوية) لم يتضح نطق كل من شطفة (الاسم) وشطف (الفعل) ، وفي قوله (ويقولون شقدف علي الهودج ، قال الشقدف مركب معروف بالحجاز ، وأما الشقنداف فليس من كلامهم انتهي) فلم يوضح طريقة نطق كلمة شقدف ، أو كلمة شقنداف لا في نطق العامة ولا في نطق الفيروزابادي، ولم يتحدث عن أصل الكلمتين ، وأكتفي بقول إن الشقندف مركب معروف بالحجاز، وقد وقر في تصوره أن نطقها مشهور عند جميع الناس وليست في حاجة إلي توضيح ، غير مراع في ذلك إمكانات الأجيال التالية في تصور نطق تلك الكلمات . وفي قوله (شطنوف كحلزون بلدة بمصر) قاس نطق العامة لشطنوف علي نطقهم لحلزون ، ولم يوضح مدي انحراف هذا النطق أو ذاك عن الفصيح .

ومما سبق يتضح التركيز علي وصف طريقة نطق الكلمات علي المستويين الفصيح واللهجي بغرض إثبات واحد من عدة أمور :

–الانحراف الصوتي في النطق علي مستوي عامية مصر أو الشام فقط ، وجاء طفيفا ومتمثلا في انحراف صوت واحد من بين حروف الكلمة ، وغلب أن يكون هذا الانحراف في علامات البناء الصرفي أي حركة فاء الكلمة أو عين الكلمة ، وقد يجتمع الاثنان في أحوال قليلة ، وقد عبر عن ذلك بالوصف الواضح للنطق كما في قوله (يقولون في الشفه شفّة فيكسرون الأول ويشددون) و(الشنف بالكسر وسكون النون والضم لحن) أو يذكر الانحراف بشكل مجمل دون توضيح كما في قوله: (والصرفان بالتحريك ...ثقيل كالرصاص غاية ما فيه أنهم حرفوا)

– تعدد طرق نطق الصوت الواحد ، وتشترك فيه مستويات اللغة جميعها، ويقره اللغويون ويغلب عليه أن يكون في فاء الكلمة أو عينها ، أو في الاثنين معا ، وقد عبر عنه بقوله : (الصدفان في قوله تعالي " حتي إذا ساوي بين الصدفين " فيهما أربع لغات صدف كجبل وعنق وصرد وعضد) و (يقولون عنده من صنف كذا فيفتحون الصاد ، ولكن هي لغة فيه) وهو ينوه أيضا بتعدد النطق الذي يحدث في نطق السوابق ، ومن ذلك قوله: (يقولون مصحف تارة بفتح الميم وتارة بضمها ولكن هو مثلث الميم قال المصحف مثلث الميم من أصحف بالضم أي جعلت فيه الصحف) و(يقولون قلبي يشفشف عليه ...وهو صحيح ، قال والمشفشف بالفتح والكسر النحيف السيء الخلق ومن به رعدة واختلاط)

- التماثل الصوتي في النطق بين العامي والفصيح ، وجاء أكثر شيوعا ودلّل علي ذلك بذكره لوجه واحد من أوجه النطق الذي يتعامل به الجميع دون تعليق منه أو وصف لطريقة النطق اعتمادا منه علي درجة شيوع اللفظ في الألسنة من ذلك قوله: (شطف ذهب وتباعد) و(الشقدف مركب معروف بالحجاز) و(يقولون فلان يصدف أي ينظر) و(ويطلق الصلف علي عدم حظوة المرأة عند زوجها)... الخ
- الإبدال المشترك بين الفصحي والعامية ومثّل له بقوله : (شغفها حبا مثل شعفها بالمهملة أي بلغ الحب شغاف قلبها وشعافه)
- الصيغ الصرفية المشتركة بشكل كليّ أو جزئيّ بين الفصحي والعامية في بنائها ومعناها المعجمي ، وكانت الأكثر شيوعا وعبر عنها في قوله : (ويقولون كبيرة شارف وهو لغوي قال الشارف من السهام العتيق القديم ، ومن النوق المسنة الهرمة ... جمعه شوارف) و(أما شطف الثوب غسله فلغوية) و(ويقولون شاف النبي أي نظره والشوف لغوي قال في القاموس شفته شوفا) و (ويقولون الفاتحة في صحايف فلان ، وهي جمع صحيفة بمعني الكتاب ، وصحف ككتب قال في القاموس نادرة لأن فعيلة لا تجمع علي فعل ... وقول القاموس نادرة لا ينافيه وجود الصحف في القرآن كثيرا ، فإنه شاذ قياسا لا سماعا) ، كما أشار إلي ما تعددت صوره الصرفية وكلها صحيحة كما في قوله (ويقولون صرّاف وصيرفي وكلاهما صحيح)
- الصيغ الصرفية المشتركة كليا أو جزئيا بين الفصحي والعامية من حيث البناء ، المختلفة من حيث المعني ، وقد أشار إلي بعضها في الأمثلة التالية : (ويقولون لعلامة الشريف شطفة وليس لها في اللغة أصل) و (ويقولون شقفة ، والشوام يستعملونها بمعني القطعة ، والذي في القاموس الشقف محركة الخزف أو مكسرة ، فلم يبين المفرد ، وليس فيه معني القطع) و (شنفتم المسامع بخلاف قولهم شنف الفنجان مثلا أي املاه إذ لا مناسبة بين الامتلاء والتشنيف) و (وقول الناس كانت صدفة يريدون أنها نادرة فلم يظهر هذا المعني من القاموس ولا من غيره مما في يدي الآن) و (ويقولون علي حجارة تخرج من الجير صرفان ، وما رأيت لها نسبة إلا ما في المختصر قال الصرفان بالتحريك الرصاص وجنس من التمر ، والصرفان ثقيل كالرصاص) و(ويقولون نظيف صليف لم أعلم معني يناسبه ، فإن صليف كأمير عرض العنق ، وهما صليفان ، إلا أن يتكلف بأن صفحة العنق دائما نظيفة فكأنه يشبه النظيف بها ، أو نقول صليف تبع لنظيف لا معني لها مثل حسن بسن).
- الصيغ المختلفة في البناء جزئيا أو كليا والمشتركة في المعني بين الفصحي والعامية ، وقد أشار إلي أن هذا الاختلاف قد يكون لأن أحد المستويين ذكر صيغة المفرد ، وذكر المستوي الثاني صيغة الجمع ومثّل لها بقوله : (ويقولون لدواء العين شيافة ، والذي في القاموس شياف ككتاب أدوية العين ونحوها ، وشيّف الدواء جعله شيافا ، ولم يبين المفرد)

– الصيغ الواردة في أحد المستويين دون ذكر لمقابلها في المستوي الآخر ، وقد ظهر ذلك عنده في الكثير من المواضع من ذلك قوله في المستوي الفصيح فقط : (قال في القاموس شفته شوفا جلوته ، ودينار في الفصحي (ويقولون صفصاف وهو شجر الخلاف واحدته بهاء مشوف مجلو انتهي) و(قال في القاموس والصدفان هنا جبلان متلازقان بيننا وبين يأجوج انتهي) و (قال في القاموس صنّف الشجر نبت ورقه) ، ومما جاء في المستوي العامي فقط وله تسمية أخري)

ثانيا علي مستوي التراكيب (التراكيب الناقصة ، والتراكيب التامة):

أ) التراكيب الناقصة: غلبت عليها لديه تراكيب الإضافة، تلتها تراكيب الصفة والموصوف، ثم جاءت أقلها تراكيب العطف وتراكيب الإتباع وتراكيب المميز والتمييز، وقد برزت التراكيب الخاصة باللغة والنحو والصرف والمعاجم من بين تراكيبه ، ووردت بشكل مصطلحي أحيانا كما في : (جمع المذكر السالم) و(شرح البسملة) و(زيادة اللفظ) و (زيادة المعني) و(مثلث الميم) و(قياسا لا سماعا) (بالفتح والتخفيف) و(بالكسر وسكون النون والضم) و(بكسر الصاد) و(بالفتح والكسر) و(مركب معروف) و (معني الجون) و(معني القطعة) و(بمعني الكتاب) و(أربع لغات) أما ما جاء مشهورا في بقية التراكيب فكان منه: (الفتن المظلمة) و(شغاف القلب أو شعافه) و (سيئ الخلق) و (دينار مشوف أي مجلو) و(در الثنايا) و(بين الصدفين) و(منقطع الجبل) و(ياجوج وماجوج) و(صراف الدراهم) و(شجر الخلاف) و(قاعا صفصفا) و(صفحة العنق) و(نظيف صليف) و(حسن بسن) و(ذي الكروم) و(تينه وعنبه) و(حسن السماع).

ب) أما التراكيب التامة: فقد غلبت عليها التراكيب الاسمية والفعلية الخاصة بمؤلفي المعاجم أيضا كما في قوله :

(وهو لغوي) و(شرف ككرم) و(وشرف ككتب وركّع وعدول) و(يروي بالقاف) و(الجون يطلق علي الأبيض والأسود) و(ليس لها في اللغة أصل) و(قري بالوجهين) و(وهو صحيح) و(يكسرون الأول ويشددون) و(سنة تجمع علي سنين ملحقة بجمع المذكر السالم) و(لم بين المفرد) و(ليس من كلامهم .. انتهي) (إن الشنف بالكسر وسكون النون والضم لحن) و(الشوف لغوي) و (صحايف جمع صحيفة) و(لأن فعيلة لا تجمع علي فعل) و (إنه شاذ قياسا لا سماعا) و (هو مثلث الميم) و (الصدف محركة غشاء اللؤلؤ) و (الصرفان بالتحريك الرصاص) و(عنده من صنف كذا فيفتحون الصاد ولكن هي لغة فيه) و (لم يضبط الصفصاف بكسر الصاد أو فتحها) .

أما ما جاء من التراكيب التامة المشهورة الأخري فكان منه الفعلي مثل : (شطف الثوب غسله) و (بلغ الحب شغاف قلبه) و(شغفها حبا) و (شنّفتم المسامع) و (شاف النبي) و(صادفه السرور والبسط) و(صدف عنه أعرض) (صنّفه تصنيفا جعله أصنافا) . وكان منها الاسمي مثل : (شطنوف كحلزون بلدة بمصر) ....الخ

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد ماهر البقري / ابن إياس واللغة من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور / ط١ / المكتب الجامعي الحديث / الاسكندرية ١٩٨٩
- جورجي زيدان / مصر العثمانية / تحقيق د. محمد حرب / ط٢/ سلسلة كتاب الهلال العدد ٥١٧/ دار الهلال / القاهرة ١٩٩٧ وتاريخ التمدن الإسلامي في ثلاثة أجزاء / تقدمة د. حسين مؤنس / ط / دار الهلال القاهرة وتاريخ الأدب العربي / ج٤ / ط / دار الهلال / القاهرة
- شاخت وبوزورث وآخرون / تراث الإسلام / ترجمة د.محمد السمهوري وآخرين / ط٢/ سلسلة عالم المعرفة العدد ٨ / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت ١٩٨٨
- د. شوقي ضيف / الفن ومذاهبه في النثر العربي / ط١٠ / دار المعارف / القاهرة ١٩٨٣
- د. عبد العظيم رمضان وآخرون / حكومة مصر عبر العصور / أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة من ٢٢- ٢٣ إبريل ٢٠٠٠م / ط١ / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة ٢٠٠٣
- د. لويس عوض / تاريخ الفكر المصري الحديث (الخلفية التاريخية) / ج١ / ط ١ / سلسلة كتاب الهلال العدد ٢١٥ / دار الهلال / القاهرة ١٩٦٩م
- محمد بن أحمد بن إياس / بدائع الزهور في وقائع الدهور / تحقيق د. محمد مصطفي / سلسلة الذخائر (٤٠) / ج٣ / الهيئة العامة لقصور الثقافة / القاهرة ١٩٩٨م
- د. محمد عبد السلام الشاذلي / تطور الفكر العربي (التنوير) / ج١ / ط١ / سلسلة المواجهة / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة ١٩٩٣م
- محمد العروسي المطوي / جلال الدين السيوطي / ط١/ دار الغرب الإسلامي / بيروت ١٩٩٥
- د.يوسف زيدان / المخطوطات الألفية كنوز مخفية / ط١/ سلسلة كتاب الهلال العدد ٦٤٦ / دار الهلال / القاهرة ٢٠٠٤
- يوسف المغربي / دفع الإصر عن كلام أهل مصر / مخطوط قدم له د. عبد السلام أحمد عواد / ط ١ / سلسلة آثار الآداب الشرقية / دار النشر (العلم) / موسكو ١٩٦٨م
- ول ديورنت / قصة الحضارة / ترجمة محمد علي أبو درة ، مراجعة علي أدهم / ج٥ من المجلد السادس (٢٦) بعنوان (الإصلاح الديني) / الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية / القاهرة ١٩٧٢م

الدوليات :

- مجلة الهلال / مجلد الأعداد الخمسة الأولي من مجلة الهلال الصادرة بعنوان (مصر والعالم يوم صدور الهلال سبتمبر ١٨٩٢/ ط١ / دار الهلال / القاهرة ١٩٩١

د. عبد العزيز شرف
رائد علم الإعلام اللغوي

د. أحمد عفيفي(*)

ترتقي اللغات بفكر أبنائها، ويزداد رقيها وتسمق هامتها برعاية الروّاد من أبنائها واهتمامهم بها. هؤلاء الروّاد يقدمون خلاصة فكرهم وعصارة حياتهم هدية للغتهم، حبا وانتماء وإيمانا منهم بحق اللغة عليهم. والدكتور عبد العزيز شرف يعدّ واحدا من هؤلاء الروّاد في العصر الحديث.

والريادة مصطلح دقيق يوصف به كل من يسبق غيره بحثا وتنقيبا واكتشافا وتنظيما وتأليفا....إلخ، والرائد –كما جاء في المعجم الوسيط– من يتقدم القوم يُبْصر لهم الكلأ ومساقط الغيث، فهو إذن يتقدم باحثا عن كل ما يفيدهم ويجلب الخير لهم، لمن هم معه أو لمن يجيئون بعده، فهو إذن مصدر خير وفائدة، ومن هذا المنطلق تطلق الريادة على الأشخاص الذين يسبقون غيرهم ثقافةً وفكراً، ويفتحون أبواب المعرفة لغيرهم، كما تطلق الريادة على كل كتاب جاد ومفيد تقدم غيره من الكتب في علم من العلوم أو في فن من الفنون؛ فهو الكتاب الأول، وهو الكتاب الرائد؛ يوصف بالريادة للسبق والتقدم.

ونحن الآن أمام حالة متداخلة من هذا القبيل، فالمؤلف هو الدكتور عبد العزيز شرف، والكتاب هو "علم الإعلام اللغوي" الذي يؤسس فرعا جديداً من فروع المعرفة. ففي سلسلة (لغويات) صدر مؤخراً عن شركة

(*) أستاذ النحو والصرف بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

أبـو الهـول للنشـر (لونجمان) بالقاهرة كتاب "علم الإعلام اللغوي"، هذا الكتاب الذي يؤكد تلك الريادة في هذا الفرع من الثقافة اللغوية الإعلامية له ولمـؤلفه الدكـتور عبد العزيز شرف، فهو ينطلق نحو تأسيس دعائم هذا العلـم لأول مـرّة في حياتنا اللغوية الإعلامية، وهو كشف حقيقي لصور الانتصـارات التي حققتها اللغة في العمل على تجسيد الاتصال الجماهيري والـتعاون اللغوي على امتداد واسع بين البشر، وهو يؤكد مبدئيا أن اللغة أصـبحت ذات هيمـنة وسلطان في ظل الإعلام الحديث، الذي لا تقتصر رسالته على المجالات الثقافية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية، بل تمتد إلـى جانـب اللغة الأكثر أهمية وشمولا وعمقا، حيث يجسد هذا الاتصال الجماهيـري نـوعاً مـن الوعي الحضاري حين يوحّد بين تفكير الأفراد والجماعات، ويؤثر في سلوكهم وآرائهم.

ويـزداد أثـر اللغـة قوة في وقتنا الراهن، كما يزداد خطر اللغة منطوقة أو مكتوبة بانتشار الصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية والسينما وغيـر ذلك من الأساليب العصرية لفنون الإعلام؛ حين خلقت لدى الناس (عالمـاً لغـويا وسطاً) نشأ عنه ما يطلق عليه (علم المنفعة العملية للغة)، وهذا ما حرص الكتاب على إيضاحه وبيان طرائقه وأنماطه وكيفية تجسيده للإفادة من هذا العلم الجديد.

وعلـم الإعـلام اللغـوي – كما يقول المؤلف– "هو أحد الفروع التطبيقـية لعلم اللغويات الحديث من جهة ولعلم الإعلام ونظرياته من جهة أخـرى"، فهو إذن علم من شقين: الأول لغوي والثاني إعلامي، ولابد لمن يرتاده أن يمتلك ناصية العلمين معا، وأن يسيطر على أدواتهما جيدا، وهذا قد توفّر في مؤلف الكتاب، فهو لغوي إعلامي، بل إنه يمتلك –إضافة على

ذلك- أدوات أخرى ضرورية للكتابة في هذا العلم قد توفرت له تعطي بعداً آخـر أكثـر عمقا وشمولا، فهو ليس باحثا لغويا منعزلاً أو إعلاميا مفقود الصـلة بالواقع، بل إنه لغوي ممارس، أديب ناقد ، شاعر، وكذلك إعلامي ممـارس، من خلال عمله يدرك قيمة المزج بين كل هذا ليكون هذا العلم الجديد أقرب إلى الواقع منه إلى التنظير البعيد عن التطبيق. والنفع العملي للغـة ينبغي أن يتم بطريقة علمية منهجية تتكئ بالدرجة الأولى على أسس ومـبادئ لغوية إعلامية تتمازج في تكامل واضح، في إطار نظري منسق تعتمد عليه أولا، وطرق واضحة عملية للتحليل والوصف ثانيا.

وهذه معالم واضحة اتكأ عليها المؤلف فجاء كتابه نمطا خاصا في مـزجه بين التنظير والتطبيق، استطاع من خلاله أن يؤسس علم الإعلام اللغـوي، مـؤكدا علـى صلة اللغة العربية بحضارة العصر الحديث في محاولة جادة وناجحة، شق – من خلالها- طريقه في هذه الأرض الجديدة في براعة وإتقان، ورسم خطوطًا واضحة لا تتوازى مع الخطوط السابقة، بـل تـتقاطع معها في منهج جديد اختطّه لنفسه؛ ليصل إلى أهداف كانت نصب عينيه تجسدت في نهاية الأمر، أفصح الكتاب عن بعضها صراحة، وترك الباقي لفطنة المتلقي وذكائه. من هذه الأهداف ما يلي:

الكشـف عن مزايا التعبير الإعلامي ومزايا التعبير وجمالياته في لغـة الضـاد، كذلك لإثبات التساوق بين لغة الحضارة والإعلام، وتحديد اسـتخدام المسـتويات اللغوية حسب وسيلة الإعلام، كذلك حرص المؤلف على بيان دور وسائل الإعلام في ارتقاء اللغة على ألسنة متحدثيها والعمل علـى تنميتها، كذلك دور وسائل الإعلام في الترويج لمنجزات المؤسسات

اللغوية المختلفة، من اقتراحات وقرارات لغوية جاءت بعد دراسات واعية، مثل مجمع اللغة العربية وغيره من مؤسسات أهلية.

ومن أهداف الكتاب أيضا وضع الطرق الكفيلة للحفاظ على الفصحى، ورفض الدعوى إلى استخدام اللهجات أو الكتابة بالحروف اللاتينية أو تغيير شكل الأبجدية العربية إلى شكل آخر أيا كان هذا الشكل؛ حفاظا على التوحد العربي والحفاظ على الكيان الجماعي، ورفض النزاعات الفردية من خلال التوحد اللغوي، وكذلك حرص الكتاب على الكشف عن أفضل مستوى لغوي يُجسِّد توحد المدركات العامة الشاملة والانطباعات الفنية، كذلك العمل من خلال لغة الإعلام – على استعادة الخصائص العربية العامة والإسلامية الخاصة، كذلك حرص الكتاب على التفريق الدقيق بين اللغة الفصحى الراقية القريبة من الناس واللغة الصعبة استخداما. تلك اللغة التي لا يفهمها إلا القلة، فليس كل فصيح صعبا، ولا كل عامي ركيكا سهلا على السامعين كما يقول العقاد، ومن هنا لابد أن تتجسد في لغة الإعلام المرونة والعمق؛ بحيث تكون نابضة بالحياة وترجمة أمينة للمعاني والأفكار، والاتساع للألفاظ والتعبيرات الجديدة التي يحكم بصلاحيتها الاستعمال والذوق والشيوع، وأخيرا تفعيل دور وسائل الإعلام في المحافظة على سلامة اللغة العربية وتعميم الفصحى المشتركة، وأن تتفاعل وسائل الإعلام مع المطلب الثقافي من خلال لغة إعلامية تعدّ جزءا من السلوك الاجتماعي في حرص شديد على نشر الوعي اللغوي.

قضايا الكتاب وفصوله:

تنوعت القضايا في هذا الكتاب الرائد حيث جاءت كل قضية في فصل مستقل، فكانت القضايا التسع المثارة التي نوجزها فيما يلي:

أولاً: طبيعة الاتصال وأقسامه بين اللغة والإعلام حيث قسمه الدكتور عبد العزيز شرف إلى:

أ- اتصال ذاتي.

ب- اتصال شخصي.

ج- اتصال جماهيري.

د- اتصال ثقافي.

والقاسم المشترك بين كل هذه الأنواع هو اللغة. وأعطى المؤلف نماذج متنوعة لكل قسم على حدة أوضح فيها خصائص وسائل الإعلام، وهو مدخل مهم يحتاج إليه المتلقي عندما يدلف مع المؤلف إلى طبيعة اللغة في كل وسيلة مع التفريق اللغوي بين كل نوع.

ثانياً: اللغة والرأي العام يوضح المؤلف- في إطار هذه القضية- أن اللغة هي نتاج العقل الجماعي تنشأ من تفاعل نشاط الأفراد وتبادل العلاقات والأفكار، وذلك عن طريق اللغة حيث يتكون الرأي العام، فهناك صلة قوية بين مفردات اللغة وكثير من جوانب الثقافة غير اللغوية، وأشار المؤلف إلى شيء في غاية الأهمية، وهو أن اللغة قد تتدخل في تحديد وتركيب أنماط الفكر في المجتمع الذي تسود فيه تلك الأنماط، التي تحدد الرأي العام وتوجهه عند الاتصال به، سواء أكان الاتصال هابطا من القيادات إلى القواعد، أو صاعدا من الجماهير إلى القيادات، أو اتصالا أفقيا بين فئات الجماهير.

ثالثاً: اللغة وعلم الاتصال بالجماهير. هذا العلم الذي يُعْنَى بأثر الانطباعات المكونة للتصورات والأنماط الذهنية على إدراك المفاهيم الجديدة، من خلال طريق لغوي مؤثر يتسم بالقدرة على الإيحاء.

رابعاً: ماذا يعني علم الإعلام اللغوي؟

يـؤكد الدكتور عبد العزيز شرف أن القارئ ربما أحس باستخدام كلمة (إعلام) استخداما شديد السذاجة، فالإعلام بالمعنى الضيق هو معرفة يكتسـبها السامع عن طريق عملية الاتصال act of communication هـذه السذاجة تأتي بسبب تجاهل أن عملية اكتساب المعلومات من جانب السامع تتوقف على خبرة أطراف عملية الاتصال، وعلى الموقف الذي يتم فيه التواصل، وعلى الوظيفة التي يضيفها الأطراف إلى عملية التواصل. وباختصار شديد تجاهل المقامية والإعلامية وخبرات المرسل والمستقبل. ومـن هنا قام المؤلف باختبار فكرة (غرض الاتصال اللغوي) وهدفه من خـلال نماذج وأمثلة، أكدت أن اللغة هي (البطل) في تحقيق هذا الغرض إضـافة إلـى تلـك العناصر الأخرى، مشيرا إلى عملية نقل المعلومات وكيفيتها من خلال الصلة بين اللغة والفكر أو بين الكلام والفكر.

ثم أشار المؤلف إلى اللغة ونظرية الإعلام، باحثا عن سبيل لقياس حجم ما في اللغة من معلومات واختبار دقتها على أساس كميّ بالأرقام، مع ضـرورة التفرقة بين أصوات أو حروف تعطي قدراً كبيراً من المعلومات وأخـرى تعطـي نزراً يسيراً، وهذا موضوع نظرية الإعلام الذي ارتبط بـتحديد أهدافه بعلم السيميوطيقا أو نظرية الإشارات والرموز، حيث يوجد تمايـز بين الإشارات والعلامات، وتفرقة بين اللغة الاجتماعية ولغة العلم؛ مما أدى إلى وجود ثلاثة مستويات للتعبير اللغوي.

ثـم قـدم المؤلف تطبيقات متنوعة للمنهج الإعلامي في اللغة من خـلال لغـة إعلامـية، ترتبط ارتباطا وثيقا بيسر القراءة في إطار دلالي سياسـيا وقضائيا وأدبيا، وقام بالتفريق بين الأسلوب الإعلامي والأسلوب

الأدبـــي فـــي دقـــة بالغة الوضوح، ثم انتهى إلى منهج عام لدراسة اللغة الإعلامـــية، يولي وجهه في مشكلاتها شطر علم اللغة ويستمد منه العون؛ وهذا ما جعله أهم فصول الكتاب وقضاياه.

خامســـاً: طرح المؤلف طبيعة اللغة الإعلامية وقام بتوصيفها، مشيراً إلى أنه ينبغي أن تكون هي اللغة العربية الفصحى، فهي لغة معرفية، لهـــا طبيعـــتها الخاصة في الإخبار بها، تلك الطبيعة تختلف عن طبـــيعة اللغات الأخرى، حيث أكد الدكتور عبد العزيز شرف أن العـــربية تتميز بما أطلق عليه (الإيجاز المعرفي)، وهذا ما يجعلها أكثر إعلاما من غيرها، كذلك من خصائصها استيفاء وجوه الدلالة وتميـــزها بمجموعة من العلاقات المتغايرة بين الكلمات والجمل، وكـــأنّ ذلـــك إشارة من المؤلف إلى هذا التغاير الذي يتوازى مع طبـــيعة العلاقـــة المتغايرة بين البشر بعضهم البعض، كذلك تتميز اللغـــة بالدقـــة؛ ممـــا بلغ بأصحابها إلى درجة عالية من الدقة في التفكير بها.

سادساً: تناول المؤلف خصائص التعبير اللغوي الإعلامي، وهي مجموعة من الخصائص تستحق التوقف طويلا، لكن تلك العجالة تقف حائلاً الآن فـــي تحقـــيق ذلك، فالعربية لغة نامية متطورة تتسم بالمرونة والحركية، رافضة الأفعال التي لا قيمة لها عكس الإنجليزية.

سابعاً: دور الإعلام في التنمية اللغوية. أشار المؤلف في إطار هذه القضية إلى عوامل تطور اللغة وارتقائها، ومن ذلك الوراثة اللغوية والتأثر بلغـــات أخرى، كذلك تتأثر بالعوامل الاجتماعية والنفسية وعلاقة كل ذلك بالإعلام.

ثامناً: لغة الصحافة. تناول طبيعة تلك اللغة وخصائصها ومنطق اللغة الصحفية في تعميم المصطلح العلمي، ودورها في تعميم المفردات التي تقرها المجامع اللغوية، حيث تستعين الصحافة بفنون التحرير المختلفة، مثل فن الخبر وفن (المجريات) وهو فن التسجيل والوصف، وكذلك فن التحقيق الصحفي والمقال ...إلخ. وخرج المؤلف بمجموعة من الأحكام الدقيقة التي يؤكد فيها أن اللفظ القصير يفضل على اللفظ الطويل، كذلك تفضل الجملة القصيرة على الطويلة، وقد ساعد كل ذلك على تجديد أنماط الدلالات اللغوية، ورسم خطة لنظام جديد يخص القواعد النحوية، وتخريج العبارات العربية تخريجا إعرابيا ولغويا في حدود خصائص العربية، وهذا ما جعلنا أمام كتب تخص لغة الصحافة وقواعد النحو العربي الخاصة بها، كما وجدت دراسات واستبانات عن لغة الإذاعة والتلفاز والصحف.

تاسعاً: لغة الإذاعة. تناول المؤلف طبيعة لغة الإذاعة وخصائصها، والمتأمل لتلك اللغة يجد أنه لابد من اختلافها عن لغة الصحافة، فالصحافة تعتمد على مصدر مطبوع يمكن الرجوع إليه عدة مرات، حيث تكون المجلة أو الجريدة في يد القارئ، أما الإذاعة فالأمر بالنسبة لها مختلف، إذ ليس شرطا للمستمع أن يتوفر له ذلك من خلال تسجيل لإعادة الاستماع وقتما يشاء؛ لأن الاستماع يمكن أن يكون في سيارة أو في عمل أو في الطريق ...إلخ؛ ومن هنا اشترط في لغة الإذاعة الوضوح والاقتصاد والسلامة والبعد عن الغموض والاسترسال، كما يشترط الإيجاز والتبسيط لسهولة تتبع المتلقي للمضمون؛ لأن للإذاعة مهمةً تختلف عن الصحافة في

تحقيق هدفها، فهي تزوّد من لا يقرأون الصحف بالأخبار، ومن هنا تخاطب نوعية مختلفة من الناس؛ ولذا نجد المؤلف يشير إلى هذا التساوق بين نوعية الناس والبرامج المستخدمة وطبيعة اللغة وخصائصها، من خلال ذكر نتيجة تلك الاستبانة التي أجريت في كل من مصر وسوريا والأردن ولبنان؛ باعتبار تلك الدول ممثلة للعالم العربي، وهي نتائج مفيدة لقارئها.

كما أشار الدكتور عبد العزيز شرف إلى خصائص صوتية مهمة في لغة الإذاعة لأنها تعتمد على الإلقاء، مؤكدا على الدور الأساسي لعلم (السيمياء)، وقدّم دراسة لغوية صوتية في غاية الأهمية، المعرفة بها ضرورية لمن يعمل في الحقل الإذاعي، قائلاً:" نبرات صوت المذيع وطريقة الإلقاء وحركات وسكنات المتكلم –يقصد المذيع– تعطي الألفاظ قوة في تحقيق المعنى الدلالي، دون أن يلقى عليها ظلالاً من عنده، بحيث يتلو المذيع نشرته تلاوة حيّة في جلاء ودقة ووضوح وموضوعية، تبرز من حياء صوت المذيع". وخرج المؤلف من دراسته القيمة بسمات خاصة للغة الإذاعية، منها: القصر في الجمل والعبارات، تجنب الحشو اللفظي، إدراك العلاقة الدلالية للألفاظ، استخدام المألوف من العبارات والألفاظ، التطابق المعنوي بين الكلمات والصورة في التليفزيون، إمكانية التكرار واستخدام المجاز، ضرورة فَهْم الخصائص الصوتية للغة من قبل المحرر، استخدام الأعداد بشكل صحيح، والتركيز على اللغة التقريرية واللغة المشتركة.

وخرج المؤلف أخيراً بمجموعة من التوصيات وضعها تحت عنوان (الإعلام ومستقبل الفصحى) ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار على مستوى الدول العربية كلها، نوجزها فيما يلي:

١- ضـــرورة تـــداول الإعلام العربي، وتعميم لغة مشتركة والتقريب بين اللهجات.

٢- العناية بالإذاعة والتلفاز؛ لتدعيم القيمة العربية القومية وتعميم الفصحى لغة للتعبير.

٣- ضرورة إقامة علاقة تعاون في هذه الدول بين إدارة الحكومة المسئولة عن تنمية الجهاز الإعلامي وإدارة الحكومة المسئولة عن التعليم.

٤- مجابهـــة اللهجـــات المتفرقة في وسائل الإعلام ورفضها؛ بغية التوحد العربي.

٥- مطالـــبة أقسام الصحافة ومعاهد الإعلام بالجامعات العربية بضرورة تحقـــيق هذا المنهج المقترح للغة الإعلامية؛ لدراسة العربية في ضوء المنهج الإعلامي.

نســـتطيع – أخيـــرا – القول بأن هذا الكتاب قيمة كبرى في حقل الـــدرس اللغـــوي والدراسات الإعلامية؛ لأنه استطاع بمهارة واضحة أن يؤســـس هذا الفرع الجديد من المعرفة، وأن يضع له مجموعة من المبادئ أجـــاد المؤلف في تنظيمها وتنسيقها وتصنيفها، كما وضع لهذا العلم إطاراً منظما يؤدي استيعابه إلى إدراك المتلقي لما يقدَّم له إدراكا صحيحا ودقيقا، كمـــا وضع أهدافاً محددة هي مطلب كل إعلامي، كما استطاع المؤلف أن يرســـم طـــريقا واضـــحا يؤدي إلى التوحد العربي ويساعد على الانتماء القومـــي، وهـــذا مطلـــب آخر مهم لدى كل الحكومات والشعوب، كما أنه استطاع بهذا الكتاب أن يغرس الوعي العميق الجاد بالإعلام ولغته وأهدافه، وهذا مطلب غال في وقت ضعف فيه الوعي اللغوي بشكل ملحوظ.

ولأن هـذا الفـرع مـن المعرفة جديد أجاد المؤلف الدكتور عبد العزيـز شـرف الـتعامل معه؛ فوجدنا من سماته روعة الإنجاز وبراعة التصـميم والاستنتاج ونبل الهدف ودقة العرض وعمق التناول. أقول لأن الأمـر كذلك فإن من حق اللغويين أن يطمعوا في (علم الإعلام اللغوي)؛ فيتـنازعوه – وأنـا معهـم باعتباري لغويا – بأن يطلقوا عليه (علم اللغة الإعلامي)؛ لأن الإعلام هدف من الأهداف اللغوية، وهو جزء من وظيفة اللغـة؛ حيث تكون اللغة وسيلة للإعلام، ليكون الأمر على نمط علم اللغة الاجتماعي، علم اللغة النفسي...إلخ لنقول علم اللغة الإعلامي وتظل الريادة للمؤلـف الكبير باعتباره لغويا أولا وإعلاميا ثانيا. وسيقف التاريخ اللغوي كثيرا أمام هذا العمل غير المسبوق.